اندريه كريسون

فولتير

حياته - آثاره - فلسفته

ترجمة

الدكتور صباح محي الدين

فولتير

حياته - آثاره - فلسفته

أندريه كريسون

فولتير

حياته - آثاره - فلسفته

ترجمة
الدكتور صباح محيي الدين

منشورات عويدات
بيروت - باريس

بيروت ـ باريس
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية
Presses Universitaires de France

الطبعة الثانية ١٩٨٤

حياته

لو كانت السعادة نتيجة طبيعية للمواهب وما تؤمنه من نفوذ لاصحابها،لوجب ان يكون فولتيرمن اسعد الناس طراً ، اذ ليس من كاتب كبير كان له في اثناء حياته أثر اعمق من أثره ، او استطاع ان يتيقن – مثله – من اتساع عبقريته . وعلى الرغم من هذا ، فان فولتير ، حين يتأمل في الحياة ، يعبر عن مرارة مستغربة . فهو يكتب في ١٧٧٠ الى الماركيز دي فلوريان : « ان نهاية الحياة كئيبة ، ومنتصفها لا يساوي شيئاً وبدايتها مضحكة » . وفي ١٧٧٢ نراه يكتب الى مدام دو ديّفان : « اني اقضي وقتي في النطنطة على حافة قبري . وهذا لعمري ما يفعله البشر جميعاً . فهم جميعاً بين ضاحك لاهٍ وباكٍ حزين » . وهذه كلمات غمّ تصدر عن الكاتب الذي يقول في موضع آخر ان الانسان

« خلق ليلهو » ، وان « التقشف نوع من الجنون » ، وان « الضحك من كل ما يستحق الضحك .. هدف في حد ذاته » كما انه يلمح الى انه لما كان قد خلق « مرحاً » فقد خالف طبيعته في كل مرة صرف فيها جهده الى شيء جدي !

وليست هذه بشطحات عابرة . فما علينا إلا ان نرجع الى قسم من مراسلاته لا مع عظماء عصره الذين يعنى بهم حين لا يكون يتملقهم، بل مع افضل اصدقائه، فنجد ان الاسلوب فيه دالّة، وخفة، وسخرية وملاحة. إلا أن الافكار هي هي . ففولتير لا يفتر عن الشكوى، فيشتكي من صحته ، ويدعي بأنه مشرف على الموت ويتوجع من مغصه ، ويشتكي من الجور اللاحق به ، ومن المزيفين الذين ينشرون باسمه التآليف الهجائية التي تعرضه للخطر ، ومن الناشرين الذين يحرفون كتاباته ، ومن المقلدين الذين يحورونها بحجة تجميلها ، ويشتكي من الدسائس التي تحاك ضد مسرحياته في حين انه لا يؤلفها الا ليتسلى بكتابتها وبتمثيلها مع اصدقائه ، ويشتكي من النقد الفاحش الذي يضطر الى تحمله من قبل كاتب اسمه الخوري ديفونتين وهو ناكر للجميل استخلصه من السجن فاذا به يكتب ضده اشياء قذرة ، ومن قبل

جان باتيست روسو الذي يتكلف ازاء فولتير تديناً هو ابعد الناس عنه ، ومن قِبَل لوفران دي بومبنيان الذي « يظن انــه شيء يذكر » ويستفيد حتى من اجتماعات الاكاديمية للافتراء عليه، ومن قبل موبرتوي وهو صديق قديم الا انه حسود ، ومؤلف لسخافات لا يصدقهـــا العقل ، ومن قِبل كريبيّـون الذي لا يغتفر له ما تلاقيه مآسيه من نجاح . ويشتكي من عَمَهِ البشر وحماقتهـم المستسلمين للخرافات الصبيانية ، ويشتكي من الكنيسة التي تضطهد الناس ، تلك « المرذولة التي يريد سحقها ». ويتأوه من الفظائع المتجسمة في قضايا كالاس وسيرفن والشفاليه دي لابارّ ، كما يحتد لمتطلبات دوائر الجباية ، ومن العراقيل التي توضع في سبيل كل مشاريعـه ، ومن المصاعب الدائمة التي تسبب له في كل فرصة ومن اجــل كل شيء .

فمن اين تأتي هذه المرارة كلها ؟ ليس من السهـل فهمها الا اذا صرفنا اهتمامنا الى بعض نواحي طبيعته والى بعض ظروف حياته . فان فولتير يدخــــل في عداد الاشخاص ذوي الحساسية المفرطة الذين يكون منهـم الشعراء . ونرى تهوره احيانــاً ، وبعض الاحداث غير المرتقبة احياناً اخرى تسبب له اضراراً حقيقية وجراحاً

بسيطة ، فيتألم منها بحيث ينسى في بعض الساعات كل الهناءات التي غمرته بها الحياة أويقات اخرى .

والذين عرفوا فولتير جيداً لا يتفقون على خصاله . الا ان ثمة خصلة واحدة تركت اثراً في انفسهم جميعاً . فقد كان فولتير ، كما قال الممثل (لوكان) وهو مدين له بالشيء الكثير ، « ذا مزاج عنيف وطبع حادّ » . وهذا يعني أنه كان يتحسس المستطاب والمؤلم من الاشياء وينفعل لها حالاً وباندفاع . ولم يكن ليضبط نفسه الا على المطاولة وكان ينجرف اما الى الحماس او الى الغضب، الى الاعجاب الزائد او الى الهزء والسخرية العنيفة والنكات التي تبلغ حد القسوة احياناً ، وحتى الى الشتائم القاسية.

وهذا ما يؤكده غريم حين يقول : « اني لا ارى هــــذا الرجل العظيم – يعني فولتير – ينحط الى اقل من مستواه الا حين يمميه الهوى . فهو اذ يستسلم الى هواه الاهوج ، دون رادع او هادٍ ، يصيح ، ويهتاج ، ويوقع بنفسه اضراراً عظيمة من حيث يظن انه يوقعهـا باعدائه ، ويتكشف عـــن خبث طفل يستثير ضحكه الشفقة » ، ويشدد لو كان على ان فولتير يملك روحـاً « حنوناً وحساساً » ولكنـــه لا « يعرف الشفقة على

الاشخاص الذين اساءوا اليه .

ونتيجة هذا كله ان فولتير لا يرى شخصاً لا يعجبه، او مؤسسة يعتبرها سخيفة ، او زياً مضحكاً حتى يشن هجومه عليها بحماس يشبه حماس دون كيشوت .

واذا عارضه احد ، سدد اليه كل اسلحته ، وطارده بعناد ، وصب عليه سخريته في كل مناسبة ، سهاماً من النكات المليحة احياناً ، والثقيلة التي تبلغ حد القسوة والضراوة احياناً اكثر . اما اذا حدث ورغب في شيء رغبة قوية كالثروة او البذخ او مقعد في الاكاديمية الفرنسية ، فانه لا يتورع عن شيء في اختيار الوسائل للوصول الى ما يرغب فيه . ولم يكلف نفسه اكثر من غيره ؛ ولماذا يحرم على نفسه المضاربات المربحة ؟ ولماذا لا يتملق الذين او اللواتي يتعلق بهم مصيره ؟ وهو يضع في خدمة هذه الميول الأساسية عبقرية فكرية خارقة ، وصفاء المعيا ، وروحا جياشة ، وفن كتابة فريد ، ونشاطاً ظل فتياً حتى آخر لحظة . وفي هذا سبب امجاد حياته وبؤسها . فالحظ ظل يناكده طيلة عمره . وفي هذا تعليل انفعالاته المتألمة ، وغضباته الملتهبة ، واخيراً احكامه المريرة التي اشرنا اليها .

وهذا الرجل الذي عرفه عصره باسم مسيو دي فولتير ، والذي يدعوه العالم كله « فولتير » تحبباً ، كان يسمى في الواقع فرنسوا ماري أرويه . واسم فولتير الذي خلده هو اسم ارض صغيرة كانت تملكها امه. وولد فولتير في شاتنيه قرب باريس او في باريس نفسها يوم ١٦ شباط ١٦٩٤ ، ولم يعمّد في كنيسة سانت اندريه ديزار الا في ٢٢ تشرين الثاني من السنة ذاتها . وعزى هذا التأخير ، فيما بعد ، الى ضعف بنيته في طفولته الاولى .

وكان والده امين صندوق في ديوان المحاسبات ويتمتع بثروة ذات شأن. اما والدته مارغريت دومون، فكانت من عائلة من صغار النبلاء في مقاطعة (بواتو) .

وهكذا دخل فولتير الحياة يعانقين ، صحته الضعيفة التي يشكو منها دون انقطاع، وان اتاحت له ان يشكو ثمانية وثمانين عاماً ، واصل بورجوازي هو — وان كان مرضياً — يحرمه من الامتيازات المقصورة في ذلك العهد على الطبقة العليا من النبلاء . وكان هذان مصدرا انزعاج لانسان في مثل طبيعته .

فكر والدا فولتير في ان يدخلاه سلك القضاء ،

فعهدا بــه الى اليسوعيين الذين كانوا يديرون كلية لويس لو غران ، فوجد في الكلية أساتذة متفوقين مثل الآباء تورنين ولوجي وبوري ، الذين ظلت علاقاتــه معهم على احسن ما يرام . وعرف في الكليــة بعض من اصبحوا اصدقاء له مثل دارجنسون ، دي سيدفيل ، دارجنتال، ريشليو ، وتعلم فيها كل ما كان يستطيع ان يتعلمه الفتى في ذلك العهد من الادب الكلاسيكي، والتاريخ والعلوم والفلسفة. وكان يدهش معلميه — حتى في ذلك الحين — بفنه في الكتابة وبيديهته .

وحين تخرج من الكلية في عام ١٧١٣ ، دعاه والده الى الدخول عند محامٍ . ولكن هذه المهنة لم تلائمه مطلقاً، اذ كان يتحرق شوقاً الى الكتابة ونظم الشعر ، والسير في السبل الجيدة التي سار عليها كورناي وراسين وبوالو، فيخلق لنفسه اسماً كبيراً . وقــام عرابه ، الاب دي شاتودان آخر اصدقاء نينون دي لانكلو بتقديمه اليهــا فاذا بها توصي له بألفي دينار ليشتري بها كتباً . وتولى عرابه كذلك ادخاله الى المجتمع الادبي الذي كان يجتمع فيه حول البرنس دي فاندوم ذوو الظرف والمجون . وهناك كان فولتير يحس بالرضا والراحة ، ويلتذ في ذلك الجو وينال اعجاب من فيه . وقلقت عائلته وحاولت

اخراجه من هذا الوسط الخطر فاوفدته الى هولندا ، فقابل فيها مدام دي نواّيه وهي امرأة صاحبة مكائد ، وعندها بنت . فوقع فولتير بالطبع ، في غرام البنت مما ادى الى مشكلة مزعجة ، حملت والده على استدعائه باسرع ما يمكن . ويذكر كوندورسيه في ذلك التاريخ ان فولتير حل ضيفاً على مسيو دي كومارتان وهي واقعة يرى كوندورسيه انها وجهت ذهن فولتير الى وقائع حياة هنري الرابع وعصر لويس الرابع عشر . ومهما يكن من امر فقد عاد فولتير الى باريس ، واستأنف نشاطه الشعري ، واصبح يعرفه الناس لحريته ولسانه اللاذع . وهذا هو سبب اول ضربة يهيؤها له القدر . فقد كانت احدى القصائد تنتقل خفية من يد الى يد ، وفيها وصف لكل ما رآه الشاعر من حماقات ، وجرائم وكوارث . وآخر بيت فيها يقول :

كل هذه المصائب رأيتها وّسني لم تبلغ العشرين بعد

وكان عمر فولتير في الحقيقة في عام ١٧١٧ ثلاثة وعشرين عاماً . ولكن اسلوب القصيدة جعل الشرطة لا تتردد في ان تعزوها اليه . ولم ينصفه نكرانه احتجاجه ، فحبس في الباستيل دون محاكمة ، وكتب

عليه أن يبقى في الحبس حتى ١٧١٨ .

ومن حسن الحظ ان المسجونين في الباستيل لم يكونوا محرومين مما يشغلهم او يسليهم . فقد كان لدى فولتير الورق والحبر وفراغ فرض عليه فرضاً ، وكان رأسه مليئاً بالمشاريع . فانتهز الفرصة كي يضع الاسس والهيكل لاول أثرين من آثاره الهامة : مأساة اوديب التي يقلد فيها سوفوكل واول مسودة للملحمة التي اسماها أول الامر « المعاهدة » ثم غير اسمها فجعله « لا هنرياد » .

لم يستعد فولتير حريته الا في عام ١٧١٨ بعد أحد عشر شهراً من السجن . وقدّم الى الوصي على العرش فمنحه الفي دينار للتعويض عما أصابه فقال له فولتير : لا يا سيدي ، اني اشكر سموكم على اعتنائكم بتأمين طعامي ولكني ارجوكم ان لا تهتموا باسكاني بعد الآن » .

ولكن هذه الامنية لم يكتب لها ان تتحقق ، ويا للأسف ! فما ان خرج فولتير من سجنه حتى استأنف نشاطه الادبي والاجتماعي ، وفي ١٧١٨ عرضت مأساته (أوديب) بنجاح عظيم درامائي وفلسفي معا . وراح جميع الناس يرددون هذين البيتين :

كهنتكم ليسوا ما يظنه الناس الجهلة
فان تصديقنا لهم هو اساس علمهم .

ومن ناحية اخرى كانت قطع من قصيدة « المعاهدة » تتداول في الصالونات . وفتحت امــام فولتير ابواب الأوساط المثقفة ، فمر في مدينة (روان) ثم في قصر (فيلار) حيث تعلق بالماريشالة زوجة صاحبه دون ان يجد تجاوباً. ورافق مدام دي روبلموند الى بروكسيل حيث التقى بجان باتيست روسو واختلف معه الى الابد. وعرض مسرحية (ارتميز) دون نجاح ، فعاد واستعمل موضوعها في مسرحية (ماريان) التي قوبلت بالتصفيق . وفي الوقت ذاته كان يتعاطى الاعمال الماليــة ويثري .

الا ان النحس كان يتابعه . فلقد اصيب بالجدري عام ١٧٢٤ في قصر (ميزون) الذي كان يدعو صاحبــه « المحسن اليه ، صديقه ، والده » ووصل به الامر الى حد الموت الا انه شفي وغادر القصر وما مضت بضع لحظات على ذهابه حتى نشبت النار في الغرفة التي كان يسكنها ودمر جناح من القصر بكل ما كان يحتويه من نفائس . ويتحدث فولتير عن هذه الواقعة باسى عميق ولا تتحمل حساسيته ان يكون ذا علاقة بالبلية وان لم يكن سبباً لها.

ولكن الاقدار عاجلته بضربة اخرى . فقد جرت بينه وبين الشفاليه دى روهان مشاجرة في عام ١٧٢٦ ،

اصطدمت فيها سفاهة هذا بتهور ذاك، ونجم عنها هيجان اضر بالاثنين . وعمد الشفاليه دي روهان الى الانتقام فاستدرج فولتير الى كمين حيث أمر خدمه بضربه بالعصي . وطلبه فولتير الى المبارزة الا ان النبيل المظم لم يتنازل الى منازلة شاعر من عامة الشعب . وطالب فولتير ما طاب له ان يطالب بحقه وبالعدالة ، فلم يلق الا عدم الاكتراث والاحتقار . ولما وصل الامر به الى المشاغبة والتهديد القي القبض عليه مرة اخرى وذاق من جديد طعم (الباستيل) . الا انه لم يبق فيه سوى اسابيع قليلة ، اطلق بعدها سراحه شريطة ان يغترب، وفرض عليه ان يترك ، لا باريس فحسب ، بل فرنسا كلها .

وفي آب ١٧٢٦هاجر الى انكلترا. ورسالته الى تيريو ذات مغزى بهذا الصدد : ما زلت اتردد بعد فيما اذا كنت سأعتكف في لندن . اني اعرف انها بلد تحترم فيها الفنون وتكافأ ، وان فيها فروقاً بين الطبقات ، دون فروق بين الناس سوى ما يفرضه فضل كل منهم . انها بلد يفكر الناس فيه بحرية ونبل دون ان يردعهم خوف دنيء . ولو اتبعت هواي اذن لاستقر بي المقام هناك ، لا تحدوني سوى الرغبة في ان اتعلم كيف افكر .

الا اني لست ادري ما اذا كانت ثروتي الضئيلة التي ضعضعتها كل هذه الاسفار ، وصحتي الضعيفة التي ساءت اكثر من اي وقت آخر وميلي للعزلة العميقة ستسمح لي بأن ازج بنفسي في ضجيج لندن » . ويعلن انه لم يعد له في الحياة سوى هدفين : « ان اخاطر بها بشرف حالما استطيع » و « ان انهيها في خمول عزلة تلائم طريقة تفكيري ومصائبي ومعرفتي بالبشر » .

الا ان فولتير استقر في لندن رغم كل المصاعب المالية ، واقام فيها حتى عام ١٧٢٩ .

واثرت هذه الاقامة الجبرية تأثيراً عظيماً على مجرى حياته وعلى ترسيخ تفكيره . وتشهد على ذلك رسائل كثيرة الى اصدقائه تيريو ومدام دي برنيير . فانه وصل الى لندن والاسى يملأ نفسه من انه يستطيع ان ينتقم من الذي اهانه ، والاسى على ايقاف مجرى حياته الشعرية . ولكنه شاب ، واسع الحيلة كما انه ، فضلاً عن ذلك « يحمل توصيات كبيرة » الى لندن حيث يراسله لورد بولنبروك . ولذلك نراه يستعيد توازنه بسرعة ، ويحسن لغته الانكليزية فيفهمها ويتحدث بها ويكتبها ، ويدرس عقائد نيوتن الطبيعية والفلسفية ،

ويتمثل نظريات بيكون ولوك ، ويختلـط في الاوساط التي تؤمن بالتفكير المنطلق ، ويحتذي مثـــال تولمان ، بولنبروك وشفتسبري ، ويقرأ شكسبير ويدهش مسن قوته ويصدمه قلة ذوقه ، ويجتذبه درايدن ، وملتن ، وسويفت وبوب . وثمة اكثر من هــذا ، فانه يفحص الجهاز السياسي الذي يدير انكلترا ، وتنظيم تجارتهـا وصناعتها ومصارفها ، فيدهشه القدر الذي استطـــاع الشعب ان يناله من الحرية ، ويحلم بأن يشن على الافكار الخاطئـــة في فرنسا ، حرباً مظفرة ، لا هوادة فيها للوصول الى نتيجة مماثلة . واذا بهذا المحب للنضال يدرك اية معركة يجب ان يخوض ويصقل لها اسلحته .

وكان بعضهم قد نشر طبعـــة سرية ومشوهة من قصيدته « المعاهدة » في عام ١٧٢٣. فعاد في عام ١٧٢٨ ونشر « لاهنرياد » وقدمهـا بمقال ، باللغة الانكليزية ، عن الشعر الملحمي ، وراح يجمع المواد ويجهز المسودات لآثاره المقبلة : من مآسي تقلد شكسبير الا انها تلائم الذوق الفرنسي ، الى تاريخ شارل الثـــاني عشر ذلك الشاب الذي مـّر بسرعة خاطفة في سمـــاء السياسة ، ووثائق لرسائل عن انكلترا التي يساوي مديحها في اي شيء نقداً لما يجري في فرنسا .

إلا أن آثاره الهامة لم ترَ النور الا بعد عودته الى فرنسا ؛ مخالفاً بذلك القانون اول الأمر ، بحيث انه اختبأ في روان حتى سمح له بالاقامة . وتقسم عودته في عام ١٧٢٩ . وفي عام ١٧٣٠ مثلت له مسرحية (بروتوس) ، وفي عام ١٧٣٢ (اريفيل) و(زايير)، واستقبلت استقبال الآثار الخالدة . وفي ١٧٣٣ ظهر كتاب (معبد الذوق) الذي خلق له عدداً مماثلاً من الاعداء والمعجبين . وفي عام ١٧٣٤ ، أحدث (تاريخ شارل الثاني عشر) ضجة كبيرة . وبالاضافة الى هذا كله نجد فولتير ، الذي ادرك اهمية الثروة للذي لم يخلق « نبيلاً) والذي تلقى دروساً في انكلترا ، ينصرف الى جمع المال بكل وسائل المضاربات التجارية . ومما لا يستغرب أن نجاحه في جميع الميادين خلق له حساداً واثار المهاترات الادبية ، وسبب لذعات تخرجه عن طوره .

وخيل له انه اصبح في مقدوره ان يرفع صوته برأيه، فشجع نشر « الرسائل الفلسفية او الرسائل الانكليزية » — واراد ان يكون النشر سرياً — ، وصدرت في احدى طبعاتها ملاحظات على تأملات باسكال . هذا على الرغم من ان الظنون اتجهت اليه بأنه حبّر الاحتجاج على معاملة

الكنيسة الجثمان (ادريين له كوفرور) التي حرمتهـــا الكنيسة لانها ممثلة تراجيدية .

إلا أن « الرسائل الفلسفية » سرعـــان ما أصبحت مثاراً للاستنكار، على اثر تصرفات خاطئة ، ووشايات، ومكر احاق بصاحبه . واحيـــل الكتاب الى برلمان باريس وحكم عليـــه بالحرق ، و القي بصاحب المكتبة (جور) في الباستيل وطلب القبض على الكاتب .

وكان فولتير يعرف حق المعرفة ملذات السجـــن والمنفى ، كما كان قد كلّ من حيـــاة المجتمع السخيفة والخلافات الادبية ، فاتخذ للأمر عدته . فكان قد وجد في المركيزة دي شاتليه خليلة ومعجبة في آن واحـــد . وكانت عائلة دي شاتليه تملك قصراً في (سيري) على تخوم مقاطعة اللورين . وفي عـــام ١٧٣٤ قرر فولتير ان يعتكف في ذلك القصر قرب العائلة ومعها .

والماركيزة دي شاتليه هـــذه كانت قد تثقفت منذ الصغر وتعلمت اللغة اللاتينية ، كما كان لديها ميل شديد الى « الرياضيات وما وراء الطبيعة » . وكـتب فولتير عنها : « من النادر ان يكون قد اجتمع لدى انسان ما اجتمع لديها من حصافة رأي وذوق وهمة للتعلم، وكانت

الى جانب ذلك ، تحب المجتمـــع وكل ما يسلي النساء اللواتي في سنها . الا أنها انصرفت عن ذلـك كله كي تذهب وتدفن نفسها في قصر مهدم » . ولكن هـذا القصر امتدت اليه يد التجميل فضم حدائـــق غناء ، ومكتبة واسعة، ومختبراً للطبيعيات ، وردهة للوحات، وغرفاً للاصدقاء والعلماء الذين يمرون به ، مثل سكوينغ وموبرتوي وجان برنوللي . واكتمل القصر بفضل الثروة التي جمعها فولتير والتي وجدت ثمة مجالاً للاستعمال .

وهكذا نجد فولتير يستكمل — في كنف خليلته — التطور نحو الاستقرار الذي بدأ في انكلترا ، وهو يحيا في أمان او ما يشبه الامان ، لم يزعجه الا ما صدر عام ١٧٣٩ من هجمات وفساد عن بعض اصدقائـــه القدماء مثل الاب ديفونتين بخصوص « رسالة شعرية الى اوراني » و « محب المجتمع » .

راح فولتير يهتم بما يهم مدام دي شاتليه ، فأخـــذ يخصص قسطاً كبيراً من وقته للاعمال العلمية . فقـــد تولعت مدام دي شاتليه بنيوتن، فكتب فولتير «مبادىء فلسفة نيوتن » ، الموجـــه الى القراء ذوي الثقافة المتوسطة . واهتمت مدام دي شاتليه بقيـــاس القوى

فألف فولتير بحثاً يخالف فيه آراء لايبنتز التي تعتنقهـا هي . وحاولت مدام دي شاتليـه ان تجيب على سؤال طرحته أكاديمية العلوم عن طبيعة النار وطريقةانتشارها فاجرى فولتير اختبارات عن الموضوع ذاتـه وحرر ـ مثلها ـ مقالة خاصة . وكتب ـ خصيصاً لها ـ بحثاً عن ما وراء الطبيعة يكشف عـن آرائه الفلسفية ، وكانت دي شاتليه تتصنع احتقار التاريـخ ـ وهو في رأيه لا يحتقر الا اذا تاه في الحوادث التافهةـ فاذا فولتير يخطط « المقالة عن العادات »،وهي تاريخ عام للحضارة من عهد شارلمان حتى عصر لويس الرابع عشر البالـغ الاهمية .

وكره فولتير الطبيعيات آخر الأمر ، وذكر السبب في رسالة له الى الكونت دي تريسان ، عـام ١٧٥٢ : « انك مصر على ميلك الى الطبيعيات . انها تسلية للعمر كله ... أما أنا فقد عدلت عنها واليك السبب : ذات يوم وانا انفخ ناري اخـذت افكر لماذا يصنع الحطب لهباً ، ولم يستطع احد ان يجيبني على سوالي ووجدت انه ليس من اختبار طبيعي يساوي شيئاً . لقـد زرعت اشجاراً واريد ان اموت اذا عرفت كيف تنمو . لقد صنعت اطفالاً وانت لا تدري كيف . لقد فهمت ..

لقد عدلت عــن التنقيب .. واذا استثنينا اكتشافات نيوتن واكتشافين او ثلاثة غيره وجدنا كل جهاز فلسفي عبثاً وقصة غارغانتوا خير منها جميعها » .

ولذلك نجد فولتير ، في فترة ابحاثه الطبيعيــة ، لا يتخلى عن « ملاهيه » الادبيـــة ، فيكتب في قصر (سيري) مسرحيات (ألزير) و (ميروب) و (الابن الضال) ، كما انه يولف كتباً اقل مستوى مثل (محب المجتمع) وهو دفاع عن البذخ . كما انه يكتب ليضحك ويُضحك « عذراء اورليان » في تسعة اناشيد دون رغبة في نشرها . الا انه يقرأ مقاطع منهـا لاصدقائه ويسمح بإستنساخها لبعض المقربين الذين لا يتورعون عن نشرها ، مما يثير غضبه ويسبب له مضايقات يبالـغ في اهميتها .

وهكذا اقام فولتير في قصر (سيري) ستة أعوام، دون انقطاع تقريباً . ولقد قام في تلـك الفترة ببعض اسفار ، كسفرته الى (ليد) في هولندا عام ١٧٣٩ . الا انه يعود بانتظام الى القصر الذي يحب جوه وساكنيه. ولكن مسيو ومدام شاتليه استدعيا الى بروكسيل عام ١٧٤٠ لقضايا هامة امام الحاكم ، فسافر معهما فولتير

وهو يفخر بانه نجح ، بمصالحة ماهرة ، في ان يضع حداً لدعوى تدوم منذ ٦٠ عاماً وتوشك ان لا تنتهي ابداً.. ووجد فولتير نفسه ، وهو في بروكسيل ، مضطراً من سبيل اللياقة ، الى ان يواصل السير الى (كليف) في المانيا كي يقابل فريدريك الثاني الذي كان يتراسل معه منذ عام ١٧٣٧ . وسنرى اثر هذه السفرة على حياة فولتير بعد قليل .

وعندما انتهت مشاكلهم في لندن لم يعد آل شاتليه وفولتير الى (سيري) بل الى باريس حيث وجد فولتير عالم الادب يموج بأدباء يحسد بعضهم بعضاً ، الى جانب محترفي السياسة الطموحين المرائين ورجال بلاط لا يعرفون الحياء . الا ان وضعه كان قد تغير . فقد كان عنده من يحميه وان كان الملك نفسه لا يحبه .وافادته معرفته بالملك فريدريك الثاني وعلاقته به ، تلك العلاقة التي كانت الشرطة تعرفها . وراحت الجهات العليا تحاول الاستفادة من صداقاته في بروسيا ، فعهد اليه عام ١٧٤٣ بمهمة دبلوماسية حقيقية اوصلته الى برلين ، ولكنه لم ينجح في الحصول على ما كانت تشاؤه الوزارة . والى جانب هذا فانه كان في حماية مدام دى بومبادور اقوى شخصية في ذلك العهد وراح يتردد على قصرها في (اتيول)، كما انه

يذهب اكثر من مرة الى قصر (سَو) حيث تقيم دوقة مين ، ويقيم العلاقات الودية مع (دارجنسون) . ويعامله ستانسلاس ملك اللورين بلطف .وهذا كله يجعله موضع الحفاوة والاكرام، فينال لقب ووظيفة «مؤرخ فرنسا» ، ويتقدم الى الاكاديمية الفرنسية فيفشل اول مرة ، الا انه ينتخب لها في عام ١٧٤٦ على الرغم من معارضة ما يسميه (طغمة الكهنوت) ويصبح من نبلاء الحاشية الملكية الخاصة ويكتب قصيدة يمجد فيها النظام الملكي بعد معركة (فونتنوا) . فالحظ اذن يحالف فولتير ... ولكن الى حين.فان سرعة خاطره، ولسانه اللاذع وهجاءه المر، وعداءه المنهجي للدين يزيد في عدد اعدائه ، فيتكتلون ضده . ويغتاظ فولتير من معارضات مسرحية (سميراميس) ويهتاج ضده كريبيون ، ويسخط على ناشري كتبه . ويبلغ به الامر ، حين كتب (الصديق) الى الادعاء بأنه ليس كاتبه .

واخيراً يعود الى سيري . وينتقل من ثمة الى (لونيفيل) حيث بلاط الملك ستانسلاس ، والى (كومرسي) حيث تمثل مدام دي شاتليه المسرحيات المنزلية . وفي آخر ١٧٤٨ يستقر في (لونيفيل) حيث تنتظره فاجعة جديدة . فقد كانت مدام دي

شاتليه غير بعيدة عن التأثر بالغرام . وكانت قد قابلت (سان لامبير) ، وكان عندئذ شاباً وشاعراً . واعقب المقابلة حمل جاء فيغير وقته. وولدت مدام دي شاتليه في (لونيفل) في عام ١٧٤٩ ، وماتت على اثر ذلك ، واغتم لموتها فولتير وسان لامبير وزوجها .

وما هو فولتير وقد اسودت الدنيا في عينيه من جديد . ولم يكن باستطاعته ان يبقى في (سيري)فعاد الى باريس حيث سكن مع ابنة اخيه (مدام دني) في البيت الذي عاش فيه مع(مدام شاتليه) ووجدالعالمالذي يحيط به معادياً له ، ولم يكن ليشعر بالاطمئنان فاضطر الى اتخاذ قرار كان يتجنبه دوماً .

كان فريدريك الثاني-يوم كان ولي عهد لبروسيا — قد بدأ مع فولتير مراسلات مرضية للطرفين . وراح ، في الرسائل الاولى ، يقول انه تلميذ فولتير ، ويعبر عن اعجابه بالشاعر والفيلسوف ، ويعرض عليه أشعاراً يقلد فيها طريقته ، ويطلب منه ان يصححها له ويشير عليه بما يراه . وتطورت المراسلات فاصبحت ميتافيزيقية . وكان الامير يؤيد الجبرية المطلقة فيا كان فولتير يحاول ان ينقذ مبدأ حرية الارادة التقليدي ، وان ادى به

الامر في النهاية الى اعتناق الجبرية . وكان الامير يتظاهر بانه يعتنق من المبادىء السياسية اكثرها تحرراً واخلاقية. وكان قـــد الف كتاباً ينقض به كتاب (الأمير) لماكيافيل ، يخطىء فيه ، باسم العدالة أفكار ماكيافيل عن السيطرة بالقوة والخديعة . وكان يرغب في ان يهتم فولتير بنشر هذا الكتاب ، ودعاه الى اللحاق بـه في برلين كي يعمل معه ، حين يصبح ملكاً . واصبح الامير ملكاً في عام ١٧٤٠ ، تحت اسم فريدريك الثـــاني . وجرت بينه وبين فولتير المقابلة التي ذكرناها ، وخرج منها فولتير مبهوراً. وكتب من بروكسيل الىدرجنسون يقول له : « يمكنني ان اؤكد لك انه (الملك) يملـك الفلسفة ، والبساطة والحنان الذي لا يتبدل ازاء الذين يشرفهم بأن يدعوهم اصدقاءه .. حزم شديد ولطف ساحر ، عدل لا يتزحزح ، انكباب مجتهـــد ، حب للفنون ، مواهب فريدة ، ... انه لم يكتب الي بهـذا التكرار ولا بهذه الثقة والطيبة الا منـذ ان تربع على العرش وراح يقوم – ليل نهار – بعمله كملك باجتهاد لا يعرف التعب » .

وتبعت هذه المقابلة مقابلات اخرى ، والمهمـــة الدبلوماسية في عام ١٧٤٣ . وكان فريدريك يشدد في

كل مرة على فولتير كي يلتحق به في برلين بالجماعة الصغيرة من المفكرين المتحررين من الديانات التقليـــدية ، الذين يحيطون بالملك ويسلونه . ولكن فولتير لم يكن يريــد ان يبتعد عن مدام دي شاتليه التي كانت بالنسبة اليــه ـــ كما كتب الى دارجنتال ـــ : « اكثر من والد واخ وابن » . ولما ماتت ، اصبح في امكانه ان يغادر فرنسا اذ كان يريد ان يتمكن من التفكير والكلام كما يحلو له في ظل حماية قوية . ولذلك قرر ان يتوجه الى برلين .

ولاقى فولتير في برلين استقبالاً رائعاً وعين تشريفاتياً وزود بمفتاح من ذهب ، وانعم عليه بمرتب ضخــــم ، ومنح وساماً مرموقاً ، واصبـــح من خاصة ملك في الامكان الخوض معه في كل المواضيع بجرأة وظرف. ولم يكن لديه من عمل سوى تصحيح وتنقيح ما يكتبه الملك من شعر ومن نثر . وبدا الوضـــع على خير ما يرام لفولتير ، فراح يحث مـــدام دني المترددة على اللحاق به .. وسوّى وضعه مع البــلاط الفرنسي حيث خسر لقب المؤرخ الا انه احتفــظ بلقب « وصيف الملك » . وفي هذا الصدد كتب الى دارجنتال في ٧ آب ١٧٥٠ : زد على هذا حرية تامة اتذوقها هنا ، وما القاه من عناية ولطف لا يوصفان من قِبَل قاهر سيليزا الذي يحمـــل

عبء مهامه الملكية من الساعة الخامسة صباحاً حتى العشاء ، والذي يعطي كل ما تبقى من دقة للآداب ، والذي يتنازل فيعمل معي ثلاث ساعات مستمرة ، والذي يخضع للنقد عبقريته الكبيرة، والذي يبدو لدي اثناء العشاء الطف الناس ، ووشيجة المجتمع وسحره ..

ولكن هذا الحماس لم يدم طويلاً . ولنترك الوقائع تتكلم . كتب فولتير في ١ كانون الاول ١٧٥٢ الى مدام دني : « كل ما افكر فيه هو الهرب بشرف .. سأكتب قاموساً صغيراً يستعمله الملوك : (يا صديقي) تعني (يا عبدي) . (يا صديقي العزيز) تعني (لا اابالي بك مطلقاً) . (سأسعدك) تعني (سأحتملك طالما احتجت اليك) . (تعشّ معي الليلة) تعني سأسخر منك الليلة) . قد يصبح هذا القاموس كبيراً ، وهو مادة يجب ان تدرج في (الانسكلوبيديا) . وهذا أمر يقبض النفس ، والحق يقال . هل كل ما رأيت ممكن ؟ هل ممكن ان يفسد بين الذين يعيشون معه ؟ ان يقول لاحدهم الطف الكلام ثم يكتب ضده كراسات .. واية كراسات ؟ ان يقتلع انساناً من وطنه باذلاً له اقدس الوعود ثم يسيء معاملته بأشد الخبث ! يا لها من مفارقات ! ذاك هو الذي كان يكتب لي جميع تلك

الأشياء الفلسفية والذي خلته فيلسوفاً . واطلقت عليه اسم « سليمان الشمال » .

فما الذي حدث بين هذه الرسالة وسابقتها ؟ اشياء كثيرة دون شك . فاننا نرى فولتير يكتب لمدام دني منذ شهر أيلول ١٧٥٠ « انهم يعرفون اذن في باريس اننا مثلنا في بوتسدام (موت قيصر) ، وان الامير هنري ذو لهجة حسنة وانه لطيف وانه التذ بتمثيله؟ كل هذا صحيح .. ولكن .. ان أعشية الملك لذيذة جداً والحديث فيها يدور على العقل والظرف والعلم ، والحرية تسود فيها ، وهو دوح هذا كله فلا يظهر غضباً .. ولا تظهر في المجلس سحابات او على الاقل عواصف .. وحياتي طليقة ومليئة بالعمل .. ولكن .. ولكن .. الاوبرا ، والمسرحيات الهزلية ، والمهرجانات والاعشية في قصر (سان سوسي) ، والمناورات الحربية ، والحفلات الموسيقية ، والدراسة ، والقراءة .. ولكن .. ولكن .. برلين مدينة كبيرة ، احسن تخطيطاً من باريس .. والقصر ، وصالة الملاهي، والملكات اللطاف، والاميرات الساحرات ، والوصيفات الجميلات المليحات، ولكن .. ولكن .. يا ابنتي العزيزة ان الطقس قارب ان يصبح بارداً ويستمر بارداً » .

ولكن .. ولكن .. هذه كانت تخفي اشياء كثيرة والبرد كان معنويا اكثر منه طبيعيا . وكان سببه أول أول الامر ، حديث جرى لفولتير مع (لا متري) ، كما قصه فولتير على مدام دني في عام ١٧٥١ . « لامتري رجل لا اهمية له يتحدث مع الملك بصدد القراءة وهو يحدثني بثقـــة . ولقد اقسم لي انه حدث الملك،منذ ايام، عما يقال عن حظوتي لديه وما تثير من حسد وضيع، فأجابه الملك : سأحتاج اليه (اي الى فولتير) عامــاً آخر على الاكثر . ان المرء يعتصر البرتقالة ثم يرمي بقشرتها . ولقد استعدت هذه الكلمات الحلوة.. وكرر لامتري ايمانه .. ولعل الملك ، في كل ما يكتبه ، يسير على هدى عقله ويظل قلبه بعيداً . ولعل كل الرسائـل التي غمرنا فيها بأفضاله لم تكن تعني شيئاً مطلقاً ».

واذ دخل الشك في نفس فولتير ، بدأ يرى نواقص معبوده ، من اخلاق خاصة قذرة مضحكة ، الى حسده ككاتب يخجل من الاخطاء التي يرتكبها ، والميل الشديد للسخرية المنافيـــة للذوق في اكثر الاحيان ، والتلذذ السادي بأن يجرح بيد بينما يدلل بالأخرى ، والتعطش الى المعلومات التي تقدمها الشرطة ، وانتهاك المراسلات الخاصة ، وتشجيع بعض النـــاس على تقديم تقارير على

البعض الآخر ، واستعداد سري للافساد بين الناس ، واية سياسة مكيافيلية لدى مؤلف الرد على ماكيافيل !! واذا « بسليمان الشمال » يتكشف عن رجل يؤمن بالقوة وبالسيطرة ويعمل بالقاعدة القائلة بأن « الغاية تبرر الواسطة » . زد على ذلك ان فولتير سئم من « غسل الغسيل القذر » من شعر الملك وأدبه . ولم يستطع ان يخفي سأمه هذا ، ووصل ذلك الى اسماع فريدريك الثاني بالطبع . وهذه كلها خدوش بسيطة ، الا انها مؤلمة للجلود الحساسة !!

ونشب الخلاف في بطانة الملك المقربة ذاتها ، حيث كان يوجد (موبرتوي) الذي عينه فريدريك الثاني رئيساً لأكاديمية العلوم . وكان (موبرتوي) صديقاً لفولتير ، كما انه حل ضيفاً على قصر (سيري) . ولكنه كان ذا طبع حاد ، يحب السيطرة فطرد من الاكاديمية ، بسبب مسألة علمية بحتة ، احد اصدقاء فولتير الشرفاء (كونيغ) واتهمه بالتزوير . فوقف فولتير في صف صديقه قلباً وقالباً . وكان موبرتوي قد نشر كتاباً مليئاً بالآراء العجيبة . فتصدى فولتير للرد عليه في كتاب هجاء بتوقيع (الدكتور اكاكيا) . واذا بفريدريك يقف الى جانب موبرتوي ويحرر بنفسه

كراسة يدافع فيها عنه ضد فولتير ، نشرها غفلاً اول الأمر ، ثم ما لبث ان زينها بإشارة تساوي التوقيع الملكي .

وفاض الكيل عند ذلك . ولم يبق في البرتقالة شيء يعتصر ، فامتدت الايدي الى القشرة. فراح فولتير يضع كل جهده ليسترجع حريته ، ورفضت استقالته اول الامر . ورممت الصداقة ، في حفلة عشاء اسماها فولتير (عشاء دموقليس). ثم تصنع المرض وكرر طلبه اجازة لازمة للاستشفاء بالمياه المعدنية في (بلومبيير) . واخيراً غادر برلين واعداً بالعودة ، وان كان قد صمم على ان لا يعود ابداً .

وثبت دعائم هذا التصميم تدبير فظ . فان فولتير ، بعد ان اقام مدة قصيرة عند دوقة ساكس غوتا ومدة اخرى في البيت الريفي للاندغراف هيسه وصل مريضاً الى مدينة فرانكفورت. وهرعت مدام دني لمعالجته حين سمعت بمرضه ، فوجدته (سجين حرب) . وفرضت عليها الاقامة في فندق تحت حراسة أربعة من الجنود ، ليلَ نهار . وكان سبب هذا التدبير القاسي الاهوج سبباً مضحكاً . فان فريدريك الثاني كان قد اهدى الى

فولتير (اشعار سان سوسي) وهي الاشعار التي كان لا يريد نشرها على الجمهور. وها هو يعود فيطلب اعادتها، ويأمر بأن يظل فولتير وابنة اخيه حبيسين حتى تعاد الاشعار اليه . ولكن نسخة الاشعار كانت قد بقيت مع بعض الحوائج التي تأخر وصولها . فاضطر فولتير الى انتظارها ووقع على البيان التالي(١٧٥٣) :

« اني اموت . واني اؤكد ، امام الله وامام البشر ، اني ، وان كنت قد خرجت من خدمة صاحب الجلالة ملك بروسيا ، ما زلت على تعلقي به وخضوعي لأوامره طيلة المدة القصيرة المتبقية من حياتي. انه يوقفني في فرانكفورت بسبب كتاب اشعاره الذي كان اهداني اياه. وسأظل سجيناً حتى يعود هذا الكتاب من هامبورغ. لقد اعدت الى وزير الملك في فرانكفورت جميع الرسائل التي كنت احتفظت بها من جلالته كعناوين افضاله الكريمة علي . وسأعيد في باريس جميع الرسائل التي قد يطلبها مني ». ووعد فولتير كذلك ان يعيد ما يشبه العقد، الذي كان يؤمن له ولدام دني مرتباً دائماً .

« واني اصرح بأني لا انتظر شيئاً من جلالة ملك بروسيا واني لا اتوقع شيئاً ، وانا في هذه الحالة المؤلمة ،

سوى العطف الذي يترتب على كرمه ونبله نحو رجل يموت ، ضحى بكل شيء وفقد كل شيء كي يتعلق به».

ولم ينتقم فولتير من الملك سوى مرتين على الرغم مما حمله له من ضغينة . وكان انتقامه سرياً اول مرة فكتب «مذكرات تستخدم لكتابة ترجمة حياةفولتير» وهي المذكرات التي عثر عليها بعد موته ، وصور فيها بدقة لا رحمة فيها فريدريك غليوم وفريدريك الثاني ، واوضح فيها نوع حياتهما العاهر .

أما في المرة الثانية فكان انتقامه مختلفاً . فقد مرت بفريدريك الثاني مرحلة ظن فيها انه هالك وفكر في الانتحار ، فتلقى عندئذ من فولتير رسالة مليئة بروح الصداقة التي كانت تربطهما . وعلى اثر ذلك عادت المراسلات بينهما بصورة متواترة

ولما خرج فولتير من فرنسا علم ان البلاط الفرنسي لا يرحب به . فعاد الى ما اسماه « حياة اليهودي التائه ». فنجده عام ١٧٥٣ في ستراسبورغ ، وفي عام ١٧٥٤ في كولمار حيث فكر في شراء بيت في الريف . وفي عام ١٧٥٤واجه فولتير في ليون الكاردينال دي تانسان ،فقابله هذا ببرود . وبعد ان فكر فولتير في التوجه الى

(ايكس) ، توجـــــه إلى قصر (براجان) في منطقة (فو) في سويسرا ؛ واخـيراً استقر رأيه فاشترى على ضفاف بحيرة (جنيف) « بَيتاً جميلاً وحديقة رائعة ». وكان البيت يقوم على اراضي جنيف ، بينما يقسع المرج امامه في فرنسا ، واملاك البيت على حدود السافوى . وكانت قوانين جنيف تحرم بيـع اي ارض لكاثوليكي . وكتب فولتير : « لقد خرقت جمهورية جنيف قوانينها قليلاً من أجلي » .

وكان اسم هذا البيت (له دليس) . ولكن فولتير لم يقنع به ، فاشترى في عام ١٧٥٥ في (مونريون) قرب لوزان بيتاً من نوع آخر . واستقر في (له دليس) ربيعاً وصيفاً ،وفي (مونريون) في الشتـاء كي ينعم بالشمس وبمسارح لوزان ومجتمعها . ولم يتوقف عن الشراء ، اذ أن نفقاته كانت باهظة ، كما ان الشك داخله في الوجوه التي وظف فيها امواله ، فضلاً عما كان فيه من ميل الى الاشياء الزراعية . فابتاع عام ١٧٥٨ ، على بعد ٤ كيلومترات من (له دليس) قصر (فرني) المتداعي ، واملاكاً خصبة يزرع فيها « القمح والشعير » وتنبت فيها اشجار بلوط رائعة . كما انه استخلص من الرئيس ديبروس ارضاً متاخمة لأراضي (فرني) ، اسمها (تورني) ، بما فيها من قرى

ومزارعين وامتيازات هامة . ووجد نفسه في (توري) لا يدفع شيئاً للملك ولا يدين بشيء لجنيف .

وها هو اذن في عام ١٧٥٩ قد استقر « على اربعة أرجل » كما كتب الى تيريو ، رجل في لوزان (للشتاء) واخرى في (له دليس) (للعشرة الطيبة) ، وثالثة في (فرني) التي يرمم قصرها ، ورابعة في (توري) . ومجموع هذا كله يشكل املاكاً واسعة ترضي فولتير . الا انه اصابه ما يصيب كل الملاكين في الريف ، فهم يملكون الاراضي الا ان الاراضي تملكهم كذلك . فقد احتبسته اراضيه فما عاد يغادرها ، وشغلته شغلاً كاملاً .

فهو مثل بطل قصة (كانديد) « يزرع بستانه » . فاذا به معمار يصلح البيوت ويوسعها كي تستقبل ، كما يحب ، ضيوفه المقيمين او العابرين ويجملها حتى تلائم ذوقه وذوق (مدام دني) التي تدبر امور المنزل ، ويبني مسارح صغيرة كي يستطيع ، حين يهوى ، ان يجرب مسرحياته القديمة او الجديدة . ويهتم الى جانب ذلك بمزارعيه ، فيراقب بذر البذار ، وحالة الكروم والقمح ، والحصاد والدّراس . كما انه يخفف عنهم المظالم ويبني لهم كنيسة ويضرب لهم المثل الصالح فيذهب الى القداس

بانتظام . ويزيد على ذلك فينشيء قرية لمساعدة المضطهدين ويضع فيها تحت حمايته جماعة من صانعي الساعات، ويبني فيها معملاً للجوارب الحريرية. ومختصر القول ان فولتير يصنع كل ما في وسعه كي يضمن الرخاء لاملاكه وسكانها . ويتنزه على اراضيه ، كأنه احد النبلاء العظام وفي يده عصاه التي اصبحت مضرب الامثال ، يتوكأ عليها من « شيوخ التوراة » .

الا ان هذا كله لا يوقف نشاطه الأدبي، اذ انه استمر في كتابة المسرحيات، يمثلها بنفسه او يرسلها للتمثيل في باريس. ومن بين هذه المسرحيات مسرحية « السكوتلندية » التي ينتقم فيها من عدوه (فريرون) إذ يظهره فيها في شكل قاطع طريق اسمه (فريلون) . وانجز فولتير كذلك آثاره التاريخية الكبرى بعد ان نقحها واضاف عليها ، ومنها « عصر لويس الرابع عشر » الذي يشغله منذ اعوام طويلة ، فقد قام بنشره على الشكل الذي اراده بعد ان نشرت منه مقاطع دون علمه ، ومنها كذلك « المقالة عن العادات » و « تاريخ روسيا » و « تاريخ البرلمان » و « وقائع الامبراطورية » ، وهي كتب تملأ مجلدات كثيرة . وقام ، فضلاً عن ذلك ، بتحرير مقالات للانسكلوبيديا ، ويشرف على تنظيم

(القاموس الفلسفي) حيث رتبت حسب الابجدية مقاطع من آثاره تختصر آراءه الجوهرية . وظل عاكفاً على كتابة الكراسات الهجومية ، والهجاء، والسخريات القاسية من اعدائه . وها هو ، أخيراً ، يتكشف عن شباب فكري عجيب ، حين ينشر ، دون ان يعترف بهـا ، تلك الروايات الفلسفية الخارقـة وأشهرها « كانديد » ، « الساذج » ، « الرجل ذي الدنانير الاربعين » .

ولم يقف الامر عند هذا . فان فولتير احتضن ابنة أخ للشاعر الكبير (كورناي) ، وأواها وعلمها بمساعدة (مدام دني) ، وهيأ لها دوطة ، ثم كتب « تعليقات على كورناي» ، كشف فيها عن انه يفهم النقد خيرفهم .

وذهب فولتير الى ابعد من ذلك ، فقد اصبح رسول التسامح الديني . فالظلم يثير غضبه ويزيد قلمه حـدة ، ويجعله يرفع صوته بسبب قضية (كالاس) ويحصل (بعد عذاب واي عذاب !) على اعادة النظر في هذه القضية التي تعد من اكبر الفضائح القضائية في ذلك العهـد . وتدخل كذلك في قضية (سيرفن) وانقذ منهـا ما امكن انقاذه ، كما انـه اعاد الاعتبار الى ذكرى (الشفاليه دي لابار) المسكين . ولم يترك فولتير مظلمة

الا تبناها وجند لها قلمه وذكاءه حتى اصبح المظلومون يحيؤون اليه في كل مرة ، فيدافـــع عنهم باسم العدالة والتسامح .

والى هــذا النشاط كله يجب ان نضيف مراسلات واسعة من مختلف الناس ، من الاصدقـــاء الحميمين الى العلماء امثال دالمبير والقادة الظافرين مثــــل دوق ريشلو ، والملوك مثــــل فريدريك الثاني وكاترين الثانية .

ولم يكن اي شيء بعيداً عن متناوله ، لا المسرح ، ولا التاريخ ولا السياسة ، فكأنه نار تتوقد وتشتعــل ويتطاير منها آلاف الشرر . وهل اعجب من كثرة المشاغل وهذه الحياة الفياضة لدى عجوز على شفا الموت؟

ولكن لدى فولتير من يساعده ، لحسن الحظ . فهو يعيش مع (مدام دني) ، على الرغـــم من بعض المشاحنات العابرة . كما انه يأوي (مدموازيل كورناي) مدة من الزمن ، ومعها الضابط (دبوي) الذي تزوجها، ويحتفظ بعلاقات طيبة مع مدام (دي فلوريان) . كما ان في خدمته ابا يسوعيا يعمل كاتماً لاسراره في الفترة التي خيل فيهـــا ان (مدام دني) ستتركه . وبيت

فولتير مفتوح للزائرين على انواعهم من الممثل (له كان) الى السفراء العابرين والشخصيات الشهيرة .

وعلى مر الزمن ، اتخذت تقاطيع فولتير شكلها الساخر المتهكم الذي خلده (هودون) في تمثاله . واصبح فولتير المثال الحي للفكر الحر الذكي ، واحتفظ ، الى جانب ذلك ، بحب المجون والسعي وراء اللذائذ .

وفي عام ١٧٧٨ ، قرر مسرح (الكوميدي فرنسيز) ان يمثل آخر مأساة لفولتير (ايرين) . واصر الجميع على ان يحضر فولتير الى باريس ويشهد التمثيلية بنفسه فقبل الدعوة ونزل ضيفاً على (المركيز دي فيليت) . واستقبلته باريس بحماس لا يوصف ، وحلت الجماهير خيول عربته وجرت العربة حتى المسرح حيث وقفت النظارة تهتف وتصفق بشكل جعله يقول : « اتريدونني ان اموت من الفرح ؟ » . وكان استقبال الاكاديمية له يليق به وبشعبيته .. الا ان فولتير اصيب ببرد اثناء زيارته الى باريس ، ومات في ليلة ٢٠ — ٢١ آذار ١٧٧٨ .

ورفض الاكليروس الباريسي دفنه حسب الطقوس المسيحية . وحمل (الاب دي سيلير) جثمانه ودفنه

في ديره ، حيث عثرت عليه الجمعية التشريعية وحملت رفاته الى (البانتيون) عام ١٧٩١ ، حيث وسدتها الى جانب رفات جان جاك روسو صديقه القديم الذي اصبح فيما بعد عدوه اللدود .

فلسفة فولتير

ورد في « المراسلات الادبية » للكاتب « غريم » (في آب ١٧٥٤) : « اذا كان التفكير الفلسفي قد انتشر وعم في عصرنا هذا اكثر منه في عصر آخر ، فاننا مدينون بذلك الى فولتير اكثر مما نحن مدينون لامثال مونتسكيو وبوفون وديدرو ودالمبير . ففولتير اذ نشر الفلسفة في مسرحياته وفي كل كتاباته ، خلق تذوق الفلسفة عند الجمهور ، وجعل الجماعات تحس بقيمها وتلتذ بآثار الكتاب الفلسفيين الآخرين» . وهذه شهادة تضع فولتير في مصاف الفلاسفة الذين يعتد بهم .

ولكن ، هل يستحق فولتير هذا المقام ؟ لقد وجد من شك في ذلك واعترض عليه . وفولتير نفسه يعترف بذلك حين يقول ان الفلسفة لم تكن شغله الوحيد أو

الأساسي . إلا أن ذلك لا يمنعه من أن يتمتع بفضيلتين جوهريتين لكل فيلسوف .. فهو يملك ، أولاً ، ذهناً متطلعاً الى كل شيء ، لا يعرف الكلل ولا الملل ، تجذبه جميع البحوث الانسانية ، وجميع الفرضيات ، وجميع الافكار المحتملة ، من الرياضيات الى الفلك والطبيعة والكيمياء والجغرافيا وعلم الاحياء وعلم النفس والتاريخ والفنون التطبيقية ، والفنون الجميلة ، والاخلاق ، والسياسة . ويهتم فولتير بكل شيء ويتعلم قسطاً من كل شيء ، ويتحدث عن كل شيء ويجرب نفسه في كل شيء . وتأتي كتاباته انسكلوبيدية ، وتنبيء عن ذهن واسع الاطلاع يريد ان يحيط بكل شيء ويفهم كل شيء . وهذا كله لا شك من خصائل الفيلسوف .

ومن طرف آخر نجد فولتير يشبه الفلاسفة حين يصرف اهتمامه وجهده الى هذا العمل الشامل بذهن كامل الحرية والتجرد . فهو ابعد الناس عن التعلق بالإفكار المسبقة دينية كانت او تقليدية . وليس من يعدله في قلة احترامه لجميع الاصنام ، وتعلقه بالفكر الحر . فهو يؤمن بأن الشيء الوحيد الذي يجب ان يهم الانسان الذي يفكر هو المعقول ، اي الواضح ، مسبقاً البين بالبرهان والثابت بالحجة . وليس للانسان المفكر إلا

معبود واحد اسمه العقل .

ففولتير ، من هاتين الناحيتين ، فيلسوف ذو شأن . إلا انه يبعد عن الفلسفة في نواحي اخرى .

فان الفيلسوف ، كالفنان ، ميزته ان يعمل وغايته الأساسية ، ان لم تكن الوحيدة ، هي ان يرضي نفسه . والنموذج في ذلك هو الفيلسوف (سبينوزا) الذي قضى حياته وهو يفكر ويتأمل في كتابه (الاخلاق) ، ويتعمق فيه ، تاركاً لوريثه ان ينشر الكتاب بعد موته . ولكن فولتير ليس كذلك مطلقاً . فهو يحب الجدل ، مولود ، كما قال « للعراك » . وهو يبحث عن الحقيقة ، لا ليرضى بها وعنها بقدر ما هو يسعى الى نشرها . وحينا يخيل له انه اصبح يعرفها ، يخيل له كذلك انه يتبين اخطاء لا تعد ، فينقض عليها ، مثل دون كيشوت حين هاجم الطواحين الهوائية ، وشماره في « لنسحق الوغد » ، حين يهاجم الكنيسة الكاثوليكية وخرافاتها وتعصبها . كما أنه يعالج جميع الامور بالروح نفسها . ومن ثم تتجت جميع الكراسات التي تعالج العدد العديد من المواضيع باساليب مختلفة . ومن ثم ذلك العنف في الرد على اعتراضات المعرضين ، والحاجة الى ترديد الاشياء ذاتها

مئـات المرات بالالفـاظ ذاتها ، كمن يضرب مسماراً ليغرزه .

ففولتير ليس فيلسوفاً فحسب . انه فيلسوف مناضل. وجاء نضاله بنتائج مختلفة بعضها موفق، وبعضها فاشل.

فلقد وفق فولتير حين قادته فلسفته الى طرح المسائل في شكلها الأدق ، وتلخيص الافكار التي يريد مهاجمتها تلخيصاً واضحاً، والاستشهاد بالأمثال على كل ما يمكن ان يظل غامضاً أو مبهماً ، والبحث عن العبارات الموجزة والحكايات الموحية التي تبقى في الذاكرة ، واجتـذاب القارىء باستثارته وتسليته الى اقصى حد . وهذه اشياء كلها كان فكر فولتير قد خلق لها خلقاً .

وفشل فولتير في ميدان الفلسفة لأنه كان ينصب من نفسه ، في كل لحظة ، محامياً يدافـع عن قضية . وتلك مسألة خطيرة بالنسبـة لفيلسوف ! اذ ان من خصائص الفكر العلمي والفلسفي ان يتحرى في كل قضية الاعتراضات التي قد تثيرها آراؤه، فلا يخفي منها شيئاً، ويفحصها بأقصى عنـاية وامانة ، وان يقـدم كل جملة فلسفيـة بشكـل لا يعرض الزائف بلباس الصحيـح ، والمرجح بلباس المحقق ، والمحتمل بلباس المرجح . اما

ميزة المحامي فهي ـ بالعكس ـ ان يقول مـا هو افضل للقضيةالتي يؤازرها، وان يتحاشى اثارة المسائل الخطيرة، وان يمر مراً سريعاً على كل ما يحرج، وان يقدم كل ما هو مموه، اي ان تنقصه احياناً سلامة النية، ان لم نقل النزاهة. وواقع الامر ان فولتير كان فاقداً سلامة النية اطلاقاً. فهو يحب الحقيقة ، بدون شك ، ولكنه لا يضعها فوق كل شيء . فقد كتب : « ان الكذب ليس ذنبـــاً الا حين يضر بشخص ما . امـا حين يفيد الانسانية ، فانه اكبر الفضائل طراً ». ولذلك فان فولتير ، اذ يؤمن بهذا المبدأ ويعمل به ، لا يتورع عن شيء ، فنراه ينشر تحت أسماء مستعارة كثيراً من كراساته وكتبه ، وينكرها باصرار ، ثم يعود فيعترف فيما بعد بأنها من صنعــه ولا يتحرج عن التفاخر بها . وهكذا نراه يتصنع ، بسخريته وتهكمه ، الايمان بمـــا ليس يؤمن به ، فيظهر بمظهر الكاثوليكي الخاضع للايمان ، ويتكلف التقوى حتى يؤدي امام شهود شعائر الفصح بشكل يثير الدهشة . وكم من رسائل يملؤها بعبارات المحبة والاحترام والاخلاص ، تنقضها تماماً رسائل اخرى كتبت في التاريخ ذاته .

ان فولتير ، كما يبدو للتاريخ ، كاتب كبير و « رجل صغير » ، مدافع عن العدالة و « طفــل يسيره هواه

ونزقه » ، رجل اعمال جشع وغير ورع احياناً ، عصبي غضوب ُقلّب يتشاجر اليوم مع صديق الأمس ، طموح يحسد زملاءه ومنافسيه ، متملق – اكثر مما يجب – للعظماء المتربعين مجالس السلطان . وهو ذو حيوية فياضة ، مسلٍ ، صاحب ظرف ونكتة . الا أن اقواله لا يمكن ان تحمل على محمل الجد جميعاً . فنحن حين نقرأ (مارك اوريل) نجد اننا نثق بما يقول . اما حين نقرأ فولتير فاننا ابعد ما نكون عن الثقة بما يقول في اكثر الأحيان .

وهكذا، بعد ان نظرنا في طبيعة فولتير، يمكننا ان نبحث في ما كتب فولتير عن افكاره الحقيقية ، فنجد ان فلسفته ذات وجهين : وجه سلبي ووجه ايجابي .

ففولتير يحقد على بعض الناس وبعض الافكار ويعبر عن حقده بقسوة متناهية . فهو يحقد على الدين المسيحي بصورة عامة ، وبصورة خاصة على الكنيسة الكاثوليكية وعلى كل عقيدة لا تعرف التسامح وتضع الايمان فوق العقل . ومعينه لا ينضب في هذا الموضوع ، وبراهينه موزعة في آثاره ، وهي دائماً واحدة لا تتغير . فهو يقول ان المسيحي يسلم امره دون قيد الى كتابين يعتقد

انهما مقدسان : التوراة والانجيل ، ويعتقد — اعتماداً على الاقوال المتوارثة — أن الله نفسه قد أوحى بهما . والمسيحي يؤمن ايماناً كاملاً بالتوراة والانجيل ويسير على هديهما في افكاره واعماله . ولكن هل لهذا الايمان مسوغ او اساس شرعي ؟ جواب فولتير على هذا السؤال : لا . ويعلل نفيه بأن مختلف أقسام التوراة ليست لها نفس صيغة الصحة والأصالة . فكيف يمكن الاعتقاد بأن موسى كان لديه ما يكتب به في الصحراء، حيث لا يوجد حتى أشجار ، ينقش عليها ! زد على ذلك ان كاتب اسفار موسى يقول بأنه يكتب من وراء الاردن ، في حين ان موسى لم يدخل ارض الميعاد ابداً ، كما ان ثمة مواقع ومدن اطلقت عليها ، في النص ، اسماء لم تعرف بها الا بعد موت موسى بوقت طويل . فاننا نجد في التوراة مثلاً : « لم يأت بعد موسى نبي يضاهيه عظمة ، وهذه جملة لم يكتبها موسى بدون شك . وفي اسفار موسى نقرأ قصة موته كاملة ، فكيف يمكن التوفيق بين هذه المتناقضات ؟

أما الاناجيل ، فانها لم تحرر رأساً في زمن المسيح ، بل كتبت بعد مائة عام من موته . وفضلاً عن ذلك فان الاناجيل التي تعتبرها الكنيسة حقيقية كانت ترافقها

اناجيل اخرى كثيرة تعتبرها الكنيسة مزيفة . فما السبب في قبـول البعض ورفض البعض الآخر ؟ والى جانب هذا ، فان الاناجيل الاربعة لا تتفق فيما بينها لا على نسب المسيح ولا على احداث طفولتـه ولا على معجزاته ولا على اقواله . فكيف يمكن اذاً اعتبارهـا جميعها صالحة وذات قيمة ؟ ولذلك فان نصوص التوراة والانجيل بعيدة عن ان يكون لها الاعتبار التاريخي الذي تضفيه عليها الكنيسة .

ومن طرف آخر ، كيف السبيل الى الاعتقاد بأن كل ما يقصه هـذان الكتابان هو من وحي الهي ؟ فاذا كان الله هو الذي املى التوراة والانجيل ، حق لنا ان نعجب ! اذ أن الله ذو افكار خاطئة جداً في علم الفلك ، كما انه يجهل علم تاريخ الحوادث ، ويجهل الجغرافيا جهلاً تاماً ، ويعتقد ان الارانب تجتر ، ويناقض نفسه بنفسه فيما يخص الاخلاق !! فهل في الامكان ان يظن المرء ان الرب ذاته يفرض مبدأ : « العين بالعين والسن بالسن » في التوراة ثم يأتي بالانجيل فيطلب « ان نمد خدنا الايمن لمن يصفعنا على خدنا الايسر ، وان نعطي رداءنا لمن سرق ثوبنا » و « ان لا نقاوم الشرير » . فهـل هذه قوانين تتفق وأوامر التوراة ؟

وكيف السبيل الى الايمان بالخرافات التي توجد في الكتب المقدسة المسيحية اليهودية ، وبالمعجزات التي يقال انها حدثت دون انقطاع خلال التاريخ اليهودي ، فاتاحت لليهود ان يعبروا البحر الأحمر والاردن دون ان تبتل اقدامهم ، وليوشع ان يوقف الشمس . وكيف السبيل الى الايمان بالمعجزات التي اسقطت اسوار اريحا عند نفخ الصور ، وجعلت شمشون يكسر جيشاً كاملاً بفك حمار ، والملائكة يتدخلون هنا وهناك في اعمال خارقة؟ وأي رأي يجب ان يبديه المرء في تكاثر الارغفة والسمك ، وفي العميان الذين شفتهم كلمة او اشارة ، وفي بعث الموتى ، والارتفاع الى السماء ، وفي الحبل بلا دنس ، وفي بتولة العذراء حتى بعد ان ولدت في حين أن يسوع كان له اخوة ؟ فاي احتمال عقلي في هذه القصص وفي كثير من غيرها ؟ وأضف الى هذا كله كل الفظائع التي تسردها التوراة ، وكل القصص القذرة والبعيدة عن التصديق التي نقرأها عن الانبياء الذين حكم على احدهم بأكل القاذورات ، وعلى آخر بالتهتك المقزز للنفس ، وغير ذلك من ضروب الاذى والاذلال يوقعها الله بهم دون سبب معروف .

ويجد فولتير نفسه أمام هذا كله متشككاً ، لا

يستطيع ان يقبل بأي شيء من كل هذا ويقول : «حين نقرأ التاريخ ، لنكن حذرين من الاساطير » . ولا يرى في الكتب المقدسة المسيحية الا شيئاً واحداً ذا قيمة : الاخلاق التي تبشر بها . أما كل ما بقي فأكاذيب ، على فكرنا ان يتحرر منها .

ولا يقف فولتير عند هذا الحد . فهو يتهم الكنيسة بأنها تدعي التحدث باسم المسيح في حين ان المبادىء التي تفرضها على تابعيها تختلف اختلافاً عميقاً عن المبادىء الموجودة في الانجيل. « فالمسيح لم يقل مطلقاً في اناجيله: لقد جئت وسأموت كي اجتث الخطيئة الاصلية . ان امي عذراء. ان طبيعتي وطبيعة الله واحدة ونحن ثلاثة اقانيم ، وان لي طبيعتين وارادتين ولكنني لست إلا شخصاً واحداً . لست أبا ولكنني والآب واحد ، فهو انا ولكنني لست هو . كل الكون هالك ابدياً وامي معه ، ولكن امي هي أم الله . آمركم بأن تضعوا – بواسطة كلمات – في قطعة خبز صغيرة ،جسمي كله، شعري ، ذقني ، بولي ، دمي ، وان تضعوا في الوقت ذاته دمي على حدة في كأس نبيذ . اذكروا ان الفضائل سبع ، والخطايا الرئيسية سبع ، كما ان الآلام سبعة ، والسعادات سبع ، والسموات سبع، والملائكة أمام الله

سبعة » . كل هذه الاشياء اخترعتها الكنيسة ، فكيف يمكن القبول بهذه الاختراعات ؟

كيف يمكن قبولهـــا خاصة حين نرى الى اي حد تحتقر الكنيسة بأعمالها المبادىء التي تقررهـــا ؟ فالمسيح استنكر عدم المساواة بين الكهنة. ولكن الكنيسة تقوم على نظام الدرجات حيث الرؤساء يتمتعون بالسلطة المطلقة ، وصغار الكهنة يحيون حيــاة بائسة . والمسيح امتدح الخشوع والندامة ، ولكن الكنيسة تضرب المثل بالكبرياء والخيلاء والبذخ الفاضح . ولقد استنكر المسيح الجشع ولكن البابا وكبار الاكليروس يعيشون في بحبوحة ورغد ، ولا يفكرون إلا في زيادة ثرواتهم. لقد امتدح المسيح اللطف والغفران . ولكن الكنيسة اخترعت التعصب وزرعت بذور التفرقــة والخلاف في كل مكان ، وشنت الحرب على المنشقين والهراطقـــة والبروتستانت واليهود والمفكرين الاحرار واذاقتهـم الاضطهاد واهلكت آلاف البشر فكانت من اعظـــم المصائب التي عرفتها الانسانية .

ويعود فولتير فيقول : لا ، حقـــاً ، لا يمكن ولا يجب الاعتقاد بأساطير المسيحية وعقائدهـــا . فالدين

المسيحي نسيج من السخافات والكذب ، ولا يمكن ان يدافع عن نفسه إلا اذا ابقى في العالم «البلاهة الالهية» .
وهذه الافكار نجدها عند فولتير في كل لحظة . فهو يكتب الى كوندورسيه : « ان نقد الكتب التي يعتبرها المسيحيون منزلة ، وتاريخ العقائد التي ادخلت على الدين الواحدة تلو الاخرى منــــذ مبدأ الدّين ، والخلافات المضحكة او الدامية التي اثارتها ، والعجائب والنبوءات والقصص المنتشرة في التواريـــخ الاكليروسية وحروب الدين ، والمذابح التي امر بها باسم الله ، واحراق اعداء الدين احياء ، ونصب المشانق في اوربا استجابة لدعوة الرهبــان ، والتعصب الذي قضى على سكان اميركا الاصليين ، ودم الملوك الذي اراقته سكاكين القتلة .. كل هذه الاشياء تظهر في كتب المسيحيين في أشكال مختلفة . ورب من يقول اني أكرر واعيـــــد .. وجوابي هو اني سأكرر حتى تصلح الامور »

والغيظ الذي يعتمـــل في نفس فولتير على الدين المسيحي غيظ عظيم ، وينفجر في جديد — وان كان هو على شكل اخف — حين يتحدث عن ديكارت ، عن الالحاد وعن جان جاك روسو .

ففولتير يقر بان لديكارت لمحات عبقرية ، فهو يمتدحه

لانه كان من اوائـل الذين استنفروا العقول الى التفكير الحر . ويعترف ان الرياضيات مدينة له بخطوات رائعة. الا انه فيما تبقى ، لا يعدو ان يكون (مؤلف روايات) ليس فيها شيء من الحس السليم . فنظريات ديكارت فيما يخص المادة ، والعناصر الثلاثة التي تتألف منها، وكيفية تشكل ما يسميه (الدوامات) ، وتداخل بعضهـا في البعض الآخر ، ما هو الا تخيلات اطفال . فديكارت لم يشأ ان يقر بأن الحركة مستحيلة في (الملء) ، وانـــه في رفضه (الفراغ) قد اقترف خطأ لا يغتفر . كما انه اخطأ خطـــأ كبيراً حين اسند الى الضوء القدرة على الانتشار الآني ، فالضوء يصرف وقتـــا من الزمن في الانتقال من نقطة الى أخرى . كما ان ديكارت قد توهم اوهاماً (مضحكة) فيما يخص طبيعة الجاذبية الارضية، وجوهر الضوء والمغناطيس وظواهر البوصلة . وكلّ مـــا جاء به في علم الطبيعة فاسد لانـــه لم يعرف ان الاجسام تتجاذب بحيث أن الحركة لا تحتاج ، كي تسري ، الى « الصدمات والضغط والشد.. ». أما نظرياته فيما يتعلق بالاحياء من بشر وحيوانات ، فانهـا تستحق الرثاء . فليس صحيحاً ان الحيوانات آلات لا شعور لها ولا افكار ولا احاسيس . فمن الجنون الغريب ان تجعل من الكلب

او العصفور مثيلاً للساعات التي لا تحس بشيء . وكذلك ليس صحيحاً ان روح الانسان (تفكر دائماً) . فان الشعور يقلق وظائفه تماماً اثناء النوم العميق او الاغماء. وليس صحيحاً ان المادة لا تستطيع ان تفكر . فلماذا لا يكون الله قد منح المادة الدماغية بالقوة اللازمة لتشكيل حالات شعورية ، وهو قد خلع على كل شيء الخصائص التي يتمتع بها والتي اكثرها يستغلق على فهمنا؟ وليس صحيحاً أن الانسان يولد وتولد معه بعض الافكار مثل فكرة الله ، وفكرة الاشياء الرياضية ، والتمارفات الاخلاقية ، اذ (ليس في العقل شيء الا مما كان من قبل في الحواس) . وليس لدينا سوى مصدر واحد للمعرفة ، الا وهي معطيات الحواس . وحينما نحتك بوسطنا نعتاد التفكير حسب متعارفات معينة .

فلهذا كله وجب رفض فلسفة ديكارت بكاملها . فديكارت » بعد ان تظاهر بالشك ، عاد فتكلم بلهجة حازمة جداً عما ليس يفهم ، وظهر بمظهر الموقن بما يقول بينما هو يخطيء اخطاء فظيعة في علم الطبيعة ، وراح يبني عالماً ممعناً في الخيال ، كما ان نظريته المتعلقة بالمادة ودواماتها نظرية عجيبة مضحكة ، مما جعلني اشك في كل ما قاله عن الروح بعد ان ضللني كثيراً في ما قاله

عن الاجسام » . ففولتير يؤمن باننا لا نعرف شيئاً عن العالم إلا بالتجربة . واذا ادعينا معرفـة اي شيء عنه مسبقاً وبالمحاكمة ، فما ذلك إلا جنون .

وكذلـك من الجنون ان يرتمي المرء في احضان الالحاد كما فعل أمثال (ديدرو) و (هولباخ) و (غريم) . « ان في الرأي القائـل بوجود الله صعوبات ، إلا ان في الرأي المعاكس احالات » . فالملحد مضطر الى ان يقر بلزوم كل شيء – كما فعل سبينوزا ؛ وعليه ان يقبـل بان كل ذرة من الغبار حتم عليها ان تكون كما هي ، وان توجد بالضبط في النقطة التي توجد فيها في اللحظة التي توجد فيهـا . وهو مجبر على ان يرى في الحركة احد الخصائص الجوهرية للمادة . فاذا كانت المادة لا تتحرك دوماً فكيف السبيل الى تفسير انها بدأت في الحركة في وقت ما ؟ والمرء مجبر كذلك على ان يعزو الى المادة – دوماً وفي كل مكان – التفكير والشعور ، والا كيف يمكن تفسير ظهور التفكير والشعور في لحظة معينة في جزء من المادة ، في الاجزاء الاخرى . وهو مضطر الى اللجوء الى « المصادفة » والى « قانون الارقام الكبرى » كيف يوضح النظام العام الذي يسود الكون ، وظهور الاحياء في العالم وما يمتازون به من غائيـة خارقة في

تكييف اعضائهم على الوظائف اللازمة للمحافظـــة على الافراد والاجناس . ولكن كيف يمكن ان نقبل انه ، اذا وضعنا كل الاحرف التي تتألف منهـــا الالياذة في كيس ، ثم افرغنا الكيس ، خرجت منه الالياذة كاملة بكل حوادثها واشعارها ؟ واذا كانت مثل هذه الظاهرة بعيدة الاحتمال ، حتى ولو افترضنا لها وقتاً لامتناهياً وعدداً من التجارب لامتناهياً ، افليس ابعـــد عن الاحتمال ان يكون العالم الذي نعيش فيه وجميـــع المخلوقات التي توجد فيه وليدة المصادفة البحتة؛ فالالحاد لا يفسر شيئاً . والعالم يصبح لغزاً مطبقاً . والملحد يظن انه يعرف كل شيء وهو لا يعرف شيئاً . فهو اذن جاهل مرتين ، مرة لانه لا يعرف ما يؤكده ، ومرة اخرى لانه لا يدرك حدود معارفه .

واذا كان فولتير يشتد في هجومـــه على المسيحيين والديكارتيين والملحدين، فان هجماته تصبح كاسحة ماحقة حين يتحدث عن جان جاك روسو .. فهو يكتب الى دالمبير : « اني لا احب آثاره ولا شخصـــه » ، وهو يصفه بأنه « ممسوس ، مجنون ، صبي مضر ، مسخ يجمع بين الخيلاء والانحطاط والفظاعات والمتناقضات » . ويقول فولتير ان في كتاب روسو المعروف (اميل) ، « خمسين

صفحة يريد تجليدها بافخر جلد » . تلك هي الصفحات التي تحتوي على «الجماهرة بالايمان للكاهن السافوائي » ، وتستحق ان تكون كتبت بقلم « رجـل حر » لا بقلم روسو . اما سائر كتب روسو فهي ، في نظر فولتير ، (لا تستحق اكثر من النسيان) . اذ كيف يمكن القبول بمبدأ ، اذا سرنا على حرفيته ، يجعلنا نتلمن على المدينة ، ونرفض حسناتها ونقبـل (بأن نسير على اربع) ؟ كيف يمكن ان نؤمن بما يتمتع به (رجـل الطبيعة) من طيبة كاملة وسعادة كبيرة ! فالانسان المتوحش كما يعرفه الرحالة مخلوق بائس ، وهـو ليس سوى (طفـل متين البنية) ، له جميع ما في الطفولة من رذائل ، وما يتخللها من تذبذب وقسوة . فكيف نقبل بأن نخطىء العلوم والآداب والفنون وكل ما يضمن سيطرة الانسان على العالم ، ونتخلى عن لذائذ العيش ؟ ويقول روسو في معرض الحديث عـن العصور الاولى : « آه ! ما احلى عصر الجديد ! » وكيف يضبط المرء نفسه حين يقرأ هذه الجملة بقلم روسو : « اذكروا ان الثمار هي لجميع الناس وان الارض ليست لأحد » وهذا تأكيد لمبدأ يهدم اهم حق في حياة الانسان ، حق الملكية .

ويخرج فولتير من هذا كله بأنه من الواجب تنظيف

الذهن من الخزعبلات المسيحية ، والتخيلات الديكارتية، والتأكيدات الالحادية ، وسخافات جان جاك روسو ، كما انه من الواجب ان نقضي على جميع ذلك بكل الوسائل من الجدل المنهجي الهادىء ، الى السخرية اللاذعة ، والبيان المفحم والمزاح الناعم والثقيل حتى السباب والمكر . ونجد هذه الوسائل جميعها في الجزء السلبي من كتابات فولتير ، وهي وسائل لاذعة هدامة .

الا ان فولتير لا يكتفي بمهاجمة ما يراه افكاراً خاطئة ، بل يسعى الى ان يبني من جديد مكانما هدم. وهذا هو الجزء الايجابي في آثاره .

ولعل من الافضل ان نستخلص رأساً أفكاره الرئيسية . فهو يرى أن عقلنا ، حين تقوده وتدعمه التجربة يتيح لنا ان نثبت عدداً صغيراً من المبادىء الجوهرية ، اثباتاً يقينياً او قريباً من اليقين. الا ان بعض هذه المبادىء تظل فيها بعض النقاط الغامضة التي تترك مجالاً لاعتراضات يمكن لنا ان نجيب على بعضها اجوبة تريح الشك . ولكن بعض هذه الاعتراضات — في طبيعتها — تجعلنا نجهل الوسائل للاجابة عليها، فيتوجب علينا ، أمامها ، ان نعترف بجهلنا وان نعلن عنه برضانا.

الا ان جهلنا هـــذا ليس سبباً كافياً للشك في حقيقة المبادىء التي توصلنا اليها بعقلنا . فالفيلسوف الحق اذن يجب أن لا يتردد في كثير من الاحوال في أن يقول : لا ادري ، ويجب عليه ان يعلن عن نفسه انه « فيلسوف جاهل » . ولكن يجب — الى جانب هذا — ان يشك في ما يثبته له عقله بشكل لا يقبل الجدل او التأويل .

هذا هو اذن منهج فولتير . واستناداً الى هذا المنهج نراه يقرر أمرين لا شك فيهما : ١ — وجود الله ، ٢ — القيمة المطلقة لشكل معين لفهم الاخلاق .

قال باسكال انه « ليس في الامكان أن نعرف وجود الله بالعقل » . وفولتير يبدي دهشة من هـــذا القول . فهل في الامكان ان يجد باسكال نفسه عاجزاً عن اثبات وجود الله ؟ ولكن نيوتن لا يقع في مثل هـــذا الخطأ . ويقول فولتير في ذلك : « ان القس يعلم الاولاد ان الله موجود ، ولكن نيوتن يثبت وجوده لذوي الالباب » . فان فولتير يرى ان العقل يتوصل ، في هذا المجال ، الى اثباتات قاطعة .

فأولاً : انا موجود . ومن ذلك استنتج : ثمة شيء موجود منذ الازل ، ذلك انه « اذا لم يكـــن ثمة شيء

موجود منذ الازل ، فان كل شيء ناتج عن العدم وليس لوجودنا سبب مطلقاً . وهذا تناقض لا يقبله العقل » . فاذا وجد شيء ، كان له سبب، وهذا السبب له سبب بدوره وهكذا دواليك . ولكن اذا لم يوجد سبب أول لم نستطع ان نفسر شيئاً مطلقاً . » فانا اذن مضطر الى ان أعترف بوجود كائن واجب الوجود منــذ الازل وهو اصل كل الـكائنات » . حسنـاً . ولكــن هذا الكائن ، أليس هو المادة ؟ ويجيب فولتير : لا ، لاسباب كثيرة منها : ان الحركة والفكر شيئان غـير لازمي الوجود . ولذا وجب ان يكونا من لواحق المادة . فهــل كان في الامكان ان يلحقا بالمادة دون تدخل سبب يختلف عــن المادة نفسها ؟ ان هـــذا السبب لا يمكن ان يكون سوى الله .

وهذه المحاكمة تكملها حجة اخرى اقوى واعــم : اننا حين نرى ساعة تسير نجد انفسنا ــ حالاً ــ واثقين من ان الساعة لم تصنع نفسها . فان كمال آلاتها يفترض وجود ساعاتي ماهر ذكي قام بصنعها . ولننظر بعد ذلك الى الطبيعة . ولنرقب النظام الرائع الذي يسير الكواكب . ولنتأمل تناسق مختلف الاعضاء في كل كائن حي ، وكيف تتعاون بحيث يمكن المحافظـة على الافراد والاجناس .

فهل من المعقول ، امام مثل هـــذا المشهد ، ان نشك بوجود عقل منظم شكل العالم بالنظـــام والتوازن بين جميع اجزائـه . « اني حين انظر الى الجسم البشري ، استنتج بأن كائناً عاقلاً قد ركب هذه الاعضاء ..وخلق العيون كي ترى ، والايدي كي تمسك .. الخ .. وهـذه الحجة ، كما يرى فولتير « ليست جديدة . الا ان ذلك لا ينتقص من قيمتها » .

والأمر الذي يؤكد قيمة هاتين الحجتين ، هو فساد الرأي المعاكس . فالذين يرفضون الاعتراف بخالق منظم عاقل للكون ، يسقطون بين براثن الالحاد ، ونحن نعرف ان فولتير يعتبر الالحاد امراً صعب المسلك اذ ان « وجود الله هو اقرب شيء الى الاحتمال يمكن للبشر ان يفكروا فيه » و « القول المعاكس من ابعد الاشياء عن العقل والمنطق » .

ويضيف فولتير الى هذا حجتين مهمتين ، اولاهما هو ان العلاقات بين شيء بعينه وشيء آخر بعينـــه من الوضوح والكمال بحيث لا يكفي ان نفترض وجود اكثر من اله واحد . فان منظـــم الكون يجب ان يكون مهندسه الاحد،ويجب ان نرى فيه « المهندس الازلي ».

وفضلاً عن هذا ، فاننا اذا وضعنا كل اعتبار ميتافيزيقي جانبياً ، وجدنا ان فكرة « اله يعاقب ويثيب » ذات قيمة اجتماعية عظيمة . ولا يترتب علينا ان ندعمها ونبثها لأنها صحيحة فحسب ، بل لانها ذات نفع انساني . فالالحاد قد يكون وسيلة الى تبادل المفارقات بين الفلاسفة المدركين ، الا ان الانسان الذي يحب الحياة من الافضل له ان لا يتوسع أمام خدمة في تقديم الحجج على عدم وجود الله . « ولو لم يكن الله موجوداً اذاً لوجب اختراعه » .

أما حجة فولتير الثانية فتتعلق بالاخلاق . ففولتير لا يفتر يردد ان الاخلاق في جوهرها ، هي هي في كل مكان ، والناس جميعاً لديهم ذات المفاهيم فيما يتعلق بالخير والشر والعدل والظلم . وهي مفاهيم نقشت في قلوبهم ، وتوجد ، متماثلة لدى جميع الفلاسفة ، وفي جميع الكتب الدينية في مختلف البلاد ، وحتى عند المتوحشين انفسهم .

وهل يعني هذا ان كل فرد يتمتع بمعرفة فطرية للاشياء ؟ كلا بالطبع ، اذ ليس فينا شيء فطري ، كما اثبت لوك . الا اننا مصنوعون بشكل يجعلنا نستخلص

المفاهيم الاخلاقية ذاتها حين تصل طبيعتنا الى درجة معينة من التطور . فان نمو الاعضاء التناسلية يدفــع الذكور والاناث ، في ساعة معينة من حياتهم ، الى البحث بعضهم عن الآخر ، والى التكاثر بوسائل متشابهة . ونمو عقلنــا ـ نتيجة خبرتنا للحياة وللمجتمع ، ونتيجة العادات التي غذتها فينا ـ يجعلنا ، حين نبلغ سناً معيناً ، نرى ميادين العدل والظلم الثابتة ، كما يجعلنـــا ندرك متعارفات الرياضيات التي لا يمكن مسها . فان الله قــد اعطانا ما نصنع منه عقلاً يقوى مع اعضائنا الاخرى . وعن ذلك ينتج الانسجام بين مشاعرنا الاخلاقية . ويسأل فولتير : « من اعطانا الشعور بالعدل وبالظــلم ؟ هو الله الذي اعطانا دماغاً وقلباً . ومتى يعلمنا عقلنا بوجود الفضيلة والرذيلة ؟ حين يعلمنا ان اثنين واثنين تساوي اربعــة . وليس من معرفة فطرية لأنه ليس من شجرة تحمل اوراقاً وثماراً لدى خروجهــا من الارض . وليس من شيء فطري ابداً . فالله يخلقنا ولدينا اعضاء تنمو ، وبنموها تجعلنا نحس كل ما يتوجب على جنسنا ان يحسه للمحافظة على نفسه » .

وليس في الامكان ، بكل تأكيد ، ان نزعم ـ كما يفعل بعض المتفائلين ـ ان ممارسة العدالة يكفي لتأمين

السعادة . ولكن ثمة شيء صحيح وهو ان الجرم ينزل به عقاب « الندم الذي لا يخطئه ابداً والانتقام الانساني الذي لا يخطئه إلا نادراً » . وكذلك الرجل الفاضل يجد جزاءه في « الشعور الباطني بانه ادى واجبه وفي طمأنينة القلب ، وهتاف الجماهير ، وصداقة الناس الطيبين » . وبهذا المعنى نجد ان الفضيلة تضفي على الناس العادلين « كل ما يمكن للطبيعة الانسانية ان تصل اليه من سعادة » .

والفضيلة في حد ذاتها لا تتطلب التقشف . ومن الحكمة ان يتذوق الانسان كل اللذات التي لا تتعارض مع العدالة والطيبة . ومن الحكمة كذلك ان يتحاشى الانسان الملل وما يجره من ازعاج . « فالانسان خلق ليتسلى » ، شريطة ان لا يؤذي احداً . واذا وجدنا تسلية في ذلك ، فلا ضير علينا في نظم الشعر وكتابة المسرحيات وتمثيلها ، والضحك مما هو مضحك ، وتجميل منزلنا وجعله بإذخاً مريحاً . ولنتعلم كيف « نزرع بستاننا » ، لا بالخضروات النافعة فحسب ، بل لنجعل فيه اشجاراً وزهوراً جميلة ، اذ ليس من الصالح ان يكون هدف الانسان تعذيب نفسه ؛ ومن الجنون ان نعتقد ان الله يطالبنا بذلك . وكتب فولتير الى فريدريك

الثاني : « اني ارى في التقشف مرضاً » ..

ففي الامكان اذن اختصار اهم فكرتين في فلسفة فولتير في هذه الجملة المقتضبة : « اعبد الله وكن رجلاً صالحاً » . وهذا هو المبدأ الوحيد للدين الطبيعي . ولقد عبرت عنه جميع الاديان المنزلة بطريقة تختلف وضوحاً. وعلى الرجال العاقلين المفكرين ان يتفقوا على هذا المبدأ دون ان يختلفوا – كما يفكرون – على الطقوس والعبادات .

بقي علينا ان نرى ما اذا كانت مبادىء هذا الدين الطبيعي يمكن الدفاع عنها بالاساليب العقلانية . اليس فيها غموض ؟ أهي في منجى عن الاعتراض ؟ ويعترف فولتير ، عن طيبة خاطر ، انها بعيدة عن ذلك كله . ولكنه ، عملاً بمنهجه الذي اوضحناه ، نراه يشير الى الصعاب من جهة ويرفض ان ينزعج بسببها من جهة اخرى .

فان الله موجود ، لا اله إلا هو ، منظم الكون . وهو ابدي سرمدي ، لانه لا يعتمد الا على ذاته ، وهو مطلق الحرية . وهو كائن عاقل، نظم كل شيء كما يبني الفنان آثاره . وهو « هندسي » قدير « وزن كل شيء

وقاسه » . وهذه جميعها اشياء يثبتهـــا العقل او على الاقل يثبت انها قريبة من الاحتمال الى حد عظيم .

ولكن ما هي صفات هذا الاله بالضبط ؟ مـــا هي طبيعته ؟ ما هي علاقاته بالفراغ وبالزمن ؟ هل يجب ان نضفي عليه اللاتناهي الذي لا يحيط به عقلنا المتناهي ؟ هل يجب ان نعتقد انه ، في قدرته القادرة ، كان يمكن ان يجعل ٢+٢ يساويان ٥ ، وان يجعـــل ما كان غير كائن ؟ كيف السبيل الى تصور عقله ، وارادتـــه ، والملاقات بينهما ؟ ولا يجيب فولتير على هـــذه الاسئلة سوى بقوله : « افضل ان اقف على ان اتيه؛ ان وجود الله ثابت لدي اما صفاته وجوهره فاني اعتقد انـــه من الثابت لدي اني لست مصنوعـــاً لتفهمها » . فلنعترف بجهلنا في مثل هذه المواضيـــع . تلك هي الحكمة الوحيدة .

الا ان فولتير يصطدم بصعاب اضخم .

فهل في الامكان، دون الخروج على المعقول، القبول بوجود خليقة ؟ هل يجب الاعتقاد انـــه ، في وقت من الاوقات ، كان العالم غير موجود وان الله قد خلقه من لا شيء ؟ هـــل يجب الاعتقاد ان المادة ازلية وان الله انما كوّنها على الشكل الذي نرى ؟ ويجيب فولتير

على هذه الاسئلة بانه لا يعلم . فان « النظرية القائلة بأن المادة ازلية يلاقي صعوبات ضخمة،شأن جميع النظريات الأخرى . وليست نظرية المادة المكونة من لا شيء باسهل على الافهام . ومن واجبنا تقبل هذه النظريات دون ان ندعي بمعرفة اسبابها . فالفيلسوف لا يوضح كل شيء . وكم من اشياء غير مفهومة نرى نفسنا ملزمين بقبولها في الهندسة مثلاً . فهل في الامكان ان نتصور خطين يتقاربان دوماً دون ان يلتقيا ابداً ؟ » ويميل فولتير الى الاعتقاد بالخليقة الازلية كما يعتقد بالله نفسه . وبما ان الله ، في اعتقاده ، موجود منذ الازل ، كذلك العالم موجود منذ الازل ايضاً . وليس في امكاننا تصور الخليقة ، ولا يعني هذا انها مستحيلة في ذاتها .

ولكن ثمة ما هو ادهى . فان الذي يجعل الملحدين ملحدين هو وجود الشر . فالذين يؤكدون وجود اله « خالق يثيب ويعاقب » مضطرون الى ان يقولوا بأن هذا الاله يعرف لماذا يفعل ما يفعل ، وما هو العالم الذي خلق . فكيف يمكنهم ان يقولوا ذلك وهم يرون في كل مكان نواقص المخلوقات ، والالم الجسماني ، والعذاب المعنوي ، وخاصة الظلم والجرائم ؟ فان منظر الكون مخيف، حتى يبدو ان الله لم ينفخ الحياة في جميع

المخلوقات الا كي « يفترس بعضها بعضاً » . فأين الحكمة والعـدل والطيبة في هذا الكون ، ونحن امام امرين : اما ان الله كان باستطاعته ان يتحاشى الشر ولم يرد ذلك ، واما انه اراد ان يتحاشى الشر ولم يستطع . وفي الحالة الأولى ، هل يمكن ان نقول انه طيب وعادل؟ وفي الحالة الثانيـة ، هل يمكن القول بأنه قادر على كل شيء ؟

ونرى فولتير يحتمي وراء المبدأ ذاته : ان اعطاء جواب يحيط بالمسائل جميعها ويرد على مسألة الشر لأمر فوق امكاناتنا . ولكن الاعتراضـات التي يأتي بها الملحدون يجب ان لا تتخلى عما نعرفه معرفة وثيقة من نواح اخرى . فاننا اذا رأينا بناء بديعاً لا يمكننا ان نشك في ان مهندساً موجود او قد وجد ، وقام ببنائه . ولكننا نرى على مراقي الدرج دماً وقاذورات. فهل هذا يكفي كي نخلص الى القول بأن المهندس غير موجود ؟ فالملحدون يقعون في هذه السفسطة . وليس في الامكان انكار وجود منظم لهذا القصر البديع ، الا وهو الكون ، لاننا نجد دماً وقاذورات توسخ ادراجه .

والى جانب هذا ، فثمة مسائل اخرى .

اننا نحكم على العدل والظلم بوصفنا افراداً اجتماعيين . فالعدل ، في نظرنا ، هو ما يخدم المجتمع ويزيد في رخائه .

والظلم هو ما يضر المجتمع ويميل الى تدميره . ولكن لماذا نفترض ان الله يقدر العدل والظلم على طريقتنا البشرية الاجتماعية . لماذا لا يكون عند الله مفهوم الهي للعدل والظلم ، لا يتفق ومفاهيمنا ؟

وحتى اذا كانت الفكرة الانسانية عن العدل والظلم مطابقة للفكرة التي يراها الله ، فهل نحن موجودون في الكون في النقطة اللازمة كي نتبين النفع والجلال والجمال في الاشياء التي تصدمنا . اليس من السخف ان يحاول الانسان بمقاييسه الصغيرة ان يخضع العبقرية !

اليس من السخف ان يحاول الفيلسوف الحكم على قيمة الكون عن طريق افكاره البشرية الصغيرة . ويقول فولتير : « ليس في رأي الكائن الاكبر شيء اسمه شر : فليس عنده الا سير الآلة الكبيرة التي تحركها القوانين الازلية دون توقف . « فالشر لنا لا لله » .

فلنقل اذن ان الله قد فعل « ما كان ممكناً فعله » . ولنذكر « انه من التناقض ان لا يوجد الشر حين يوجد الخير » . ولنظل ثابتين امام محجة الشر ، دون ان ننسى انه ليس لدينا اجوبة جازمة عليها .

وهكذا نستطيع الابقاء على يقيننا ، دون ان نغطي

على جهلنا. وهذا يهيؤنا للتسامح الذي هو اولى الفضائل. فلنعتقد اذن بوجود الله ولندع المماحكات لمن يشاء من اللاهوتيين والميتافيزيقيين دون ان نتأثر بها .

ولكن اذا تركنا الحقائق الاولية التي يوردها فولتير ليدعم بها اعتقاده بالله ، ما الذي نعرفه ؟ يجيب فولتير على هذا السؤال : ربما كان ما نعرفه قليلاً جداً ، ولكن تلك الحقائق كافية لتجعلنا ننظم افكارنا ونوجه سلوكنا. وهي تعطينا ـ نحن النملات الصغار ـ ما نتفهم به العالم الأكبر .

لقد أكتشف نيوتن ما كان يجهله ديكارت . ونحن بفضل نيوتن نملك مفاهيم ذات اهمية عظمى في علوم الفلك والطبيعيات والرياضيات . فقد حاول ديكارت ان يبني على أساس من المحاكيات المسبقة علماً يحيط بالكون، ولكن نيوتن بنى علمه على اساس من التجربة والحساب الدقيق وخرج من ذلك بهذه الحقيقة الجوهرية: « كل شيء يجري كما لو ان الاجسام تتجاذب بنسبة احجامها وبنسبة معكوسة لمربع بعدها بعضها عن الآخر » . وهذا القانون موثوق لانه يتيح لنا ان نفهم ـ في الوقت ذاته ـ الحركات الظاهرة في السماء التي لم

يعللها كوبرنيك ولا كبلر ولا غاليله إلا تعليلاً تقريبياً ، والجاذبية وما فيها من خصائص يكشف عنها الرقاص ، وظاهرة المد والجزر التي كانت غامضة الى وقتنا هذا ، كما ان هذا القانون يجعل من الممكن التنبؤ بضبط بكسوف الشمس وخسوف القمر ، وتعليل حركات السيارات ، وحساب عودة المذنبات . وفضلاً عن هذا كله ، فقد كشف نيوتن سلوك النور ، ولاحظ انه يأخذ وقت للانتقال من مكان الى آخر ، واكتشف كيف يتجزأ النور الابيض حين يمر بموشور ، وجاء بنظرية متينة عن جوهر النور كان ديكارت جاهلاً بها . وهكذا فتح نيوتن الطريق وضرب المثل على ما يجب عمله كي يتقدم علم الطبيعة .

ولا شك في ان بعضهم قد اتهم نيوتن ، حين إتى بكلمة « التجاذب » انه احيا في العلم تلك « الصفات الدفينة » التي حاول ديكارت طردها منه ، وهذه تهمة ظالمة ! ولا شك في اننا لا نعرف بأية عملية يتم تجاذب الاجسام ولا لماذا يتم وهذا ما يعترف به نيوتن بنفسه . ولكننا نعرف – رغم ذلك – ان التجاذب موجود وان وجوده يفسر عدداً كبيراً من الظواهر الطبيعية التي كانت ، من قبل ، تبدو مستقلة بعضها عن بعض .

ويقول فولتير : « طالما سخر بعضهم من « الصفات الدفينة » . ولكن الواجب السخرية من الذين لا يؤمنون بها . ولنكرر مئة مرة ان كل سبب لأي عمل من اعمال الخالق هو سبب دفين ، مخفي الى الابد عن عيون البشر » . فلنقبل اذن بالوقائع: فالقوة الجاذبة المركزية، وقوة التجاذب ، والقوة التي تظهر في حركات القلب ، وفي حياة النبات ، والقوة التي تبين في عمل العقل والحواس ، كل هذا « صفات دفينة » . ولكن هذه جميعها — على الرغم من ذلك — اشياء حقيقية ، لا يمكن تفسير اي شيء دون الرجوع اليها .

وهكذا نجد فولتير يعلن انه من اتباع نيوتن ، لانه من اتباع الحقيقة . فهو يؤمن بقيمة علم الطبيعيات الجديد الذي اطلع عليه اثناء مقامه في انكلترا . ولكنه ، حين يظهر بمظهر المجدد في هذا المجال ، نجده حذراً ، متردداً أمام النظريات الطبيعية التي بدأت تظهر حوله .[1]

فان بعض العلماء مثل مايّه وبوفون خرجوا بافكار جديدة ذات اهمية من دراستهم للاحافير وخاصة للقواقع التي توجد في الاحجار الكلسية، وحتى في اعالي الجبال. وقال هؤلاء العلماء ان الارض كانت، في الماضي، مغمورة

بمياه البحر ، تحددها التيارات البحرية الناجمـــة عن الجاذبية ، تلـك التيارات التي رسمت تحت الماء جبالاً ووديانا ؛ ثم حدثت تصدعـــات ومغائر بسبب تقلص الارض التي بردت حرارتها ، فاندفعت اليها المياه بحيث ان القارات برزت الى العيان بجبالها ووديانها .

ويحتج فولتير على هــــذه النظريات . وهو مضطر للاعتراف بأن البحر وجد في أمكنة واطئة كثيرةحيث توجد آثاره . ولكنـــه يرفض ان يعترف بأن البحر كان يبلغ من العمق ما يسمح له بأن يغمر جبـــال الالب ، ويقول ان هذا الافتراض « سخيف » ، ومناقض لجميع قوانين علم توازن السوائل . والواقـــع ــ حسب رأي فولتير ــ ان الارض كانت في حاجة الى انهر ، وبالتالي الى جبال . ولذلك وجب ان تكون الجبـــال موجودة منذ الازل . وفضلاً عن هذا فان فولتير ينكر طبيعـــة الاحافير ويذهب الى حد تعليل وجود القواقع الموجودة في الاماكن العالية بقوله انها سقطت من الحجـــاج الذين مروا هناك !

ويتخذ فولتير موقفاً عائلاً بخصوص ظهور الكائنات الحية على الارض . فقد كان معاصرو ديكارت يعتقدون

بالخلق الآني ، كتولد الذباب من اللحـــوم المتعفنة والبراغيث من الغبار وحتى الفئران في اكياس القمح . وجاء المجهر فكشف عن وجود مخلوقات مجهرية في المياه الآسنة ، لا تظهر للعين المجردة . وها هو اليسوعي نيدام يعتقد بتشكل حيوانات صغيرة في ماء نقعت فيه حبات من القمح . ويستفيد الملحدون كاتبو الانسكلوبيديا من هذه الاكتشافات ليتخذوها حججاً في صالحهم .

ولكن فولتير لا يعتقد بمثل هذه المخلوقات ، ويسلط على نيدام سخرية فيسميه « ابي السمك » ويقول : «ليس في الامكان صنع السمك من حبوب القمح » . وهـذا اعتراض صحيح . ولكن هل يعني ذلك القول باستحالة ظاهرة مماثلة للظاهرة التي اخطأ نيدام في تعليلها ؟

ويظل فولتير على موقفه ذاتـــه بخصوص اصول الاجناس . فاننا نرى ماتيه وديدرو يميلون الى الاخـذ بشيء من نظرية النشوء والارتقـــاء . ولكن فولتير يرفض هذه النظرية ويقول : « يجب ان لا ننسى الحقيقة الكبرى التي تثبت ان الطبيعة لا تكذب نفسها . فجميع الاجناس تبقى كما هي دائماً . فالحيوانات والنبات والمعادن جميعها لا تتغير على اختلاف انواعها . وكل شيء يحتفـظ

بجوهره » . ومن المسلي ان نجد فولتير الجريء يتعلق بالنظريات التقليدية القديمة في الوقت الذي بدأت فيه بشائر نظرية النشوء والارتقاء التي سوف تغير مفاهيم الفكر البشري تماماً في القرن التاسع عشر .

ولعل هذا التعصب الفكري هو الذي يفسر آراءه في المخلوقات بصورة عامة وفي البشر بصورة خاصة .

فالمسيحية تنسب الى الانسان وتنفي عن الحيوانات روحاً لامادية خالدة ، تصدر عنها حياة الانسان وفكره . ويقول فولتير : « اني لا اقول جازماً بأن لدي البراهين ضد روحانية الانسان وخلوده ، ولكن كل الاحتمالات تقف ضدها » . فالتجربة لا تكشف لنا سوى شيء واحد : « ان الله يمنحنا الحواس الخمس والفكر » . فهل نستنتج من هذا انه لم يكن في امكانه منحنا ذلك دون ان يعطينا نفساً روحانية ؟ وكثيرون يؤكدون ذلك لانهم يعتقدون ان المادة عاجزة عن ان تتسبب بحالات وجدانية . ولكن هؤلاء يتوجب عليهم ان يسلموا اذن بأن للحيوانات العليا نفساً روحانية كما لنا . اذ ليس من سبب يدعونا الى ان نعزو روحاً الى الانسان دون ان نعزوها الى الكلب . هذا من جهة . ومن جهة اخرى كيف امكن لله ، وهو القادر على كل شيء ،

ان يمنح المادة قابلية التفكير ؟ وكيف نعزو الى الانسان نفساً روحانية دون ان نثير عدداً لا يحصى من المسائل التي لا حل لها . فبأية طريقة اتحدت النفس الروحانية بالجسم المادي ؟ وبأية طريقة تدخل الجسم ؟ وهل يجب التسليم بأن خالق الكون يراقب تناكح البشر دون انقطاع كي يضع الارواح في الاجسام في الوقت المناسب؟ انه لرأي مضحك . ومن طرف آخر نتساءل ما هي هذه المادة الروحانية التي يعزي اليها الخلود ؟ ان الشيء الذي يجعلنانحن امام انفسنا ليس الا تذكر ما كنا عليه في الماضي . وحين نقول : نفسنا الروحانية ، ماذا نعني ؟ انعني اننا نبقى بعد الموت بكل ذكرياتنا ؟ وهل هذا ممكن بعد ان تفنى مادة الدماغ ؟ وهل يرد الموت ذكريات الذين اضاعوها بسبب الهرم او المرض او الحوادث ؟ واذا كانت الروح خالدة دون ان تحتفظ بذكرياتها ، فما فائدة الخلود لنا ؟ فاننا حين نموت لا نعود نعرف انفسنا ، ولا نعرف احداً . واذا تعذبنا ، فلن نعرف اننا نتعذب عقاباً لاخطاء نكون قدنسيناها. واذا كنا سعداء ، فلن نعرف كذلك ان ذلك ثواب لاعمالنا الصالحة ؟ فما نفع هذا الافتراض اذن ؟ ومن الحق القول انه ليس في الامكان نفي بقاء الوجدان بعد

الموت نفياً مطلقاً . اذ ان الله يمكنه ان يحتفظ بذلك الجزء الضئيل من المادة الذي منحه التفكير . والذين يعتقدون ذلك يجدون في اعتقادهم سلوى. ولكن عليهم ان يدركوا ان اعتقادهم انما هو ايمان عاطفي لا علاقة له بالعقل .

وبعد تحديد هذه النقطة ، لننظر في القابليات البشرية . يعزو ديكارت للانسان مصدرين للمعرفة : الحواس والعقل ،وهما محركان متضاربان للنشاط البشري ، احدهما يقود الى الاهواء والآخر الى حرية الارادة ، ولقد اثبت لوك خطأ هذه النظرية .

فليس من عقل فطري . ومن السخف الادعاء بأن الطفل يتأمل « من بطن امه » ، فكرة الله ، والتماريف الاولية للرياضيات ، وجوهر الخير والشر وما يسميه الديكارتيون « المفاهيم المشتركة » . اذ ليس لدينا سوى مصدر واحد للمعرفة هو حواسنا . فهي التي تقدم لنا المعطيات الأولية ، وهذه بدورها تبقى فينا على شكل صور يستدعي بعضها بعضاً . وبهذه الصور يتصرف تفكيرنا ، وبواسطتها يبني . « فالاحاسيس تدخل عن طريق الحواس ، فتحتفظ بها الذاكرة وتشكلها المخيلة» .

ويبدو ان المخيلة تخلق الا انها لا تفصل سوى ترتيب الاحاسيس ، ومجموعة هذه الترتيبات نطلق عليها اسم معارفنا . ويتبنى فولتير نظريات لوك وباركلي وهيوم فيما يخص تشكل الافكار المركبة ، وما يدعى بالافكار العامة وكل العلم البشري . ويعيد الى الاذهان نتائج العملية التي اجراها تشزلدن على شخص ولد اعمى ، ونظرية الرؤية التي تنطبق عليها . ومما لا شك فيه ، حسب فولتير ان الحقائق الخارجية موجودة بصرف النظر عن صورها الذهنية عندنا ، فهو يقول : « حين اكتب افكاري على ورقة ويقرؤها شخص آخر علي ، كيف يمكنني ان اتعرف عليها لو لم تكن موجودة على الورقة مثلاً ؟ » . الا اننا لا نعرف هذه الحقائق الخارجية الا على طريقتنا أي بالنسبة الى طبيعة حواسنا ، التي هي الوسيلة الوحيدة التي نملكها للمعرفة .

ويخلص فولتير من هذا كله الى القول بأنه اذا لم . يكن لدينا سوى مصدر واحد للمعرفة ، فلا يوجد اذن سوى مصدر واحد لأفعالنا . ولذلك فان الخطأ واضح في نظرية « الارادة الحرة » أي الارادة التي لا تتأثر بالميول والاهواء التي توحي بها حواسنا . ويقول فولتير : « انا حر حين استطيع ان افعل ما اريد . ولكني

ملزم بأن اريد ما اريد ، اي انني لا استطيع ان اريد دون سبب . وكل ما عـــدا ذلك مستحيل » . ويحتج بعضهم قائلاً : كيف الابقاء اذن على مسؤولية الأفراد ، وتعليل العقوبات والمكافآت ؟ ويجيب فولتير : ان وجدت حرية الارادة ام لم توجد فان الرذيلة رذيلة دوماً كما ان القبح قبح . ولما كان يوجد ارذال وقبيحون ، فان من الطبيعي ان نحترس منهم . فاذا كان الشر مقــدراً عليهم فعلوه واشتكوا من العقاب ، فنرد عليهم ان العقاب كان مقدراً عليهم . امــــا الذين يتساءلون عن مسؤولية الانسان امام الله اذا كانت حرية الارادة غير موجودة ، فالجواب عليهـــم : « ان الله مسؤول عن خطايا الانسان في كل الاديان ، ولا ينكر ذلك سوى الملحدون . فان الله اذا كان يساهم في اعمـال البشر الفاسدين كما يساهم في اعمال الناس الصالحين ، فمن الجلي ان المساهمة تعدل الفعل ، حين يكون المساهم هو خالق كل شيء » . ويضيف فولتير : « اذا كان الله قد ادرك ان البشر سيفعلون الشر ، ترتب عليـه ان لا يكون خلقهم . وهذه حجة قديمـــة لم ينجح احد في الجواب عليها ، وليس من سبيل الى اضعافها » .

هذه هي الخطوط الأساسية للفكر الانساني كما يراها فولتير .

أما الخطوط الأساسية للتاريخ الانساني ، فان فولتير يرى ان البشر لا ينحدرون جميعاً من ارومة واحدة ، وان ثمة اجناساً مختلفة من البشر ، كما نعرف اجناساً مختلفة من الطيور . ويقول : « يبدو لي ان لدي ما يبرر الاعتقاد بأن البشر يشبهون الشجر ، فالشوح والسنديان واشجار التفاح والمشمش لم تأت من شجرة واحدة ، وكذلك البيض والسود والصفر لا ينحدرون من انسان واحد » . وهذه الاجناس المختلفة قد تولدت، دون شك ، في مناطق مختلفة . ومن العبث ان نجعل البيض ينحدرون من الهنود الحمر ، والصينيين ينحدرون من المصريين .

وبعد ذلك كله يرى فولتير رفض آراء جان جاك روسو في الانسان البدائي . فالانسان البدائي كان بربرياً بائساً بعيداً عن الحضارة . والانسان في حالته الفطرية « ليس الا طفلاً متين العضلات فحسب » . والبؤس شيء عام عند المتوحشين ، على الرغم من ان احوالهم قد تحسنت كثيراً بفضل معيشتهم قروناً عديدة في مجتمعات .

فكيف كانت حالة اجدادهم الأول اذن ؟

ويجب ان لا نتصور ان الانسان عاش وحيداً في أول امره . « فلكل حيوان غريزته وغريزة الانسان، يدعمها العقل ، تدفعه الى المجتمع كما تدفعه الى الأكل والشرب » . فالزواج من امرأة او اكثر ، وانجاب الاطفال وحمايتهم ، هذه هي فطرة الانسان . ولذلك فقد وجدت جماعات اجتماعية صغيرة منذ اقدم الازمان. ولم تصبح الانسانية ما هي عليه الآن الا لأن هذه الجماعات وجدت ، ولأن الافراد الذين كانوا يشكلونها تعاونوا وحمى بعضهم بعضاً من الطبيعة ومن البشر الآخرين ، ولأن التجربة اتاحت للصغار ان يستفيدوا من الخبرة التي اكتسبها آباؤهم » .

وليس في هذا الامر معجزة ، كما ان ليس في التاريخ معجزة . « ثمة ثلاثة اشياء تؤثرعلى فكر البشر : المناخ، نوع الحكم ، الدين . وهذه هي الوسيلة الوحيدة لتفسير لغز هذا العالم » . فان انتصارات البشرية على الأشياء ، وتناحر الجماعات البشرية ، وتقدم الاخلاق والعلوم والفنون ، كل هذا جرى بصورة طبيعية . وكل هذا سيستمر متزايداً كلما توسع أفق العقل البشري ، وكلما

احرز قدراً اكبر من التقدم العلمي ، والصناعي ، والفني والاخلاقي والسياسي ، مما يتناسب اكثر مع حاجات الانسانية .

ويكشف لنا فولتير اكثر من مرة الخطوط الرئيسية عن التقدم السياسي الذي يحلم به ، ولا تقتصر هذه على المذهب الطبيعي الذي اتى به فولتير معه من انكلترا ، بل فيها آراء اجتماعية وسياسية يرى انها الآراء الصالحة الوحيدة . ويقول فولتير : « هذا ما توصل اليه التشريع الانكليزي آخر الامر : لقد اعاد الى كل انسان جميع الحقوق الطبيعية التي فقدها في ظل معظم الانظمة الملكية . وهذه الحقوق هي : الحرية المطلقة في التصرف بشخصه واملاكه والتحدث الى الامة عن طريق قلمه ، وعدم محاكمته في قضية جنائية الا أمام محلفين مستقلين، وعدم محاكمته في اية حالة الا حسب المنطوق الدقيق للقانون ، وممارسة أي دين يحلو له في أمان ، شرط الامتناع عن الوظائف التي لا يمكن املاؤها الا من قبل الانغليكانيين . وهذه الحقوق تسمى **امتيازات**. ولعمري انه امتياز عظيم جداً وميمون جداً ان يضمن المرء حين ينام ان يستيقظ في اليوم التالي ولديه الثروة التي كان يملكها البارحة ، وان لا ينتزع من ذراعي زوجته واطفاله في

منتصف الليل كي يلقى في سجن او منفى ، وان يجد عند استيقاظه القدرة على نشر ما يراه ، وان لا يحاكم إلا حسب القانون اذا اتهم بانه عمل ، او تحدث ، او كتب سوءاً » .

هذا هو النموذج الذي يجب ان يحتذى . وهذه هي الاخلاق التي يجب تخليدها في فرنسا . « وثمة نوعان من القوانين: القوانين الطبيعية وهي مشتركة ونافعة للجميع، لا تسرق ولا تقتل قريبك ، احترم اباك وامك ، لا تسرق زوجة أخيك ، لا تسرق لتضر اخاك .. وهذه حقائق مزبورة في جميع القلوب .. اما القوانين الاخرى فهي سياسية ، ومدنية محضة ، وهي قوانين تعسفية ابداً » . وهذه القوانين الاخيرة هي التي يجب تعديلها ، على ضوء المبادىء التالية : « قد تضمحل الفضائل الانسانية ، وتذهب المذاهب ولكن الحقوق الدولية باقية » . « اننا لم نعد نعيش في زمن الرسل ، ولكننا ما زلنا في زمن المواطنين . فالقضية قضية حقوقهم ، وحريتهم الطبيعية ، وتنفيذ القوانين الشرعية ، والعهود المقطوعة ، ومصلحة الجنس البشري ».وثمة مبدأ يفرض ذاته : « كلما اقتربت القوانين المرفية من القانون الطبيعي ، اصبحت الحياة اسهل واطيب » .

ولا يقتصر فولتير على عرض آرائه في هذه الناحية ، بل هو ينتقد ويطالب .

وأول ما يطالب به لكل فرد هو احترام ملكه وحريته . « فروح الملكية تضاعف قوة الانسان » ، كما انها مفيدة كذلك « للعرش وللرعية في جميع الاوقات » . والشك في قيمتها الاخلاقية ، كما فعل جان جاك روسو، عمل توحشي همجي . فلكل امرء الحق في ان يملك وأن يورث ما ملك بالطرق المشروعة . والحرية اكبر النعم اطلاقاً .. ويجب ان يكون لكل انسان الحق في توخي « رفاهيته التي لا تكون شراً الا حين يظلم اخوانه » . فللانسان حرية العمل ، وحرية التفكير ، وحرية التعبير عن آرائه ، شريطة ان لا يكون « مخرباً هداماً » .

وعلى ضوء هذه الحقائق ينتقد فولتير الوضع في فرنسا .

فالعدالة الفرنسية سيئة التنظيم . و «بيع الوظائف» سخافة مجرمة ، اذ ان الوظائف يجب ان تكون وقفاً على أصحاب المؤهلات والفضل . وأي شيء ادعى الى الشفقة من قانون تسري مواده في مقاطعة دون مقاطعة

اخرى مجاورة لها! واي شيء افظع من تعذيب المتهمين، وتقطيع اوصال المجرمين ! فالعقوبات يجب ان تكون مناسبة للجرائم ومن الواجب الغاء كل عقاب لا يكون نفعه الاجتماعي واضحاً بيناً .

ومن الظاهر لكل عين الظلم الفادح في نظام للضرائب يلقي بثقل الجبايات على عاتق الفقراء ويستثني منهـــا النبلاء والاكليروس ، اي اكثر الطبقات غنى في الامة. ثم أليس من الحزن الاحتفاظ داخل الدولة بالاديرة التي يجتمع فيها الرهبان الذين لا يؤدون عملاً ولا يتكاثرون، الى جانب جيش من الجنود لا يقوم بأية مهمـــة اثناء فترات السلم ، في حين توجد اعمال كثيرة لازمة يمكنهم ان يقوموا بها .

ويرى المتأمل في السياسة الخارجية كيف تدار حسبما اتفق دون الاكتراث للعدالة او الانسانية. والحرب شيء مريـــع ، معيب . وهؤلاء « اللصوص الذين يسمون فاتحين » ، ما اكرههم ! ومن الواجب ان يتسلح الناس ضدهم ؛ والاستعداد لمقاومتهم . ويجب ان يعلم الشبان ان المجد الصحيح ليس مجد « الابطال المدمرين » ، بل هو مجد المنظمين الكبار مثل لويس الرابـــع عشر ،

وبطرس الاكبر وكاترين الثانيـــة الذي عرفوا كيف يشجعون ويحمون العلوم والفنون والصناعات ، وكل ما يضمن رفاهية شعوبهم . هذا ما يجب ان يعلمه التاريخ عوضاً عن ان يكون مجموعة من القصص والحكايات التي تتخم الذاكرة ، فضلاً عـــن كونها اكثر الاوقات مشكوكاً فيها .

إلا أن فولتير ، يستهجن اكثر ما يستهجن، التعصب الديني . فهو يرى انه يجب ان يكون لكـل انسان الحق في ان يرى رأيه في هـــذه القضايا ، وان يمارس الطقوس التي تلائمه ، وان يعبد الله على طريقتـه ، على شرط واحد وهو ان يحترم دين الآخرين . ففي داخـل الدولة مكان للقسس الذين يتناولون اجورهم من الدولة ، ولا يهتمون الا بعمل الخير ولا يتداخلون في المماحـكات اللاهوتية . ولكن حينما يصبح الدين وسيلة للخلافات التي تورث الأحقاد ، والاضطهادات المكشوفة او المنافقة ، فانه يصبح مصيبة عمياء . والكنيسة الكاثوليكية كانت، من هذه الوجهة ، وطيلة تاريخها الطويـل ، عاملاً يبث الشقاقات والاختلافات الشنيعة .

أما عن النظـــام السياسي ، فان الذين يطالبون

بالمساواة بين الجميع يعيشون في اوهـام خطيرة ، اذ ان المساواة غير موجودة . « فقد قال احـد الفلاسفة بأن كل العقول متساوية ، ولكن عكس ذلـك امر معروف منذ القدم . فاننا اذا اخذنا اربعمائة طفل يربون على يد المعلمين ذاتهم ، ويتلقون العلم ذاته ، لم نجد سوى خمسة او ستة منهم ينالون تقدمـــاً محسوساً » . فلا القوى الجسمانية ، ولا الذكاء ، ولا المعرفـة ، ولا المشاعر الاخلاقية مقسمة بالتساوي .. والعقول تختلف اكثر من من الوجوه . ويخلص فولتير من هذا كله الى القول بأن المواساة أمر جد طبيعي وجد وهمي معاً . وفي الواقع ليس من اهمية لنظام الحكم ، ملكياً كان أم ارستقراطياً أم ديموقراطياً . فالمهـم في الأمر ان تدير الدولة البلاد حسب المبادىء التي توفر للمواطنين الطمأنينة والأمن الخارجي التي بدونها تصبح الحياة شيئاً يرثى له. فما على الدولة إلا ان تؤمن لكل شخص سلامة بأقـل نفقة ممكنة ، ثم تتركه حر التصرف بعد ذلك . والتعليم ذاته — وهو شيء ممتاز مبدئياً — لم يصنـــع للجميع . ويكتب فولتير الى صديق له : « ارى انه من اللازم ان يكون في العالم رعاع جهلة .. ولو كان عندك مثلي أرض تستثمرها وكان عندك محاريث مثلي ، اذن لكنت من

رأيي » . وهذه كلمات صادقة الا انها تؤذي اسماعنا حين تصدر عن فولتير .

هذه هي المبادىء الاساسية لما اطلق عليه معاصرو فولتير اسم « فلسفة فولتير » ، وهي مبادىء ليست اصيلة او مبتكرة . فقد استعار فولتير آراءه وحججه من اسلافه ومعاصريه ، واستخلصها من سبينوزا وبايل ولوك ونيوتن ، وبنى فلسفته ، على عجل ، على اسس لم تكن جميعها متينة ، ودون ان يتقيد بالدقة المطلوبة من الفلاسفة . ولكن ذلك لم يمنعه من ان يكون من كبار العاملين في ميدان تلك الفلسفة التي حررت الاذهان في القرن الثامن عشر .

وقبل ان نختتم هذه الدراسة لنطرح سؤالاً: في الوقت الذي نجد كثيراً من كتاب الانسكلوبيديا يكتبون ويتحدثون كملحدين صريحين ، نجد فولتير لا يفعل ذلك ، بل يحاول اثبات وجود الله ويعتقد انه نجح في ذلك . فما السبب اذن في ان سمعته كعدو للدين غلبت سمعتهم جميعاً ؟ وقد نفهم ان تكون هذه السمعة من صنع الكاثوليك والبروتستانت الذين اعلن الحرب عليهم . ولكن ما السبب في انه — في نظر الجمهور — احد

المسؤولين عن ذلك الالحاد الذي يقول عنـــه – في كل لحظة – انه خطر ومناف للعقل .

لعل الجواب على هذا السؤال ينحصر في نقطتين :

اولاً – يبدو كأن فولتير يجد لذة خاصة في ان يعرض الحجة العظمى للالحاد الذي يحاربه الا وهي حجة الشر ، وذلك في نثره وشعره وبقوة وعنف . فاذا كان فولتير يؤمن بوجود الله اصبح من الصعب عليه ان لا يقر بأن كل ما يفعله الله انما يفعله للخير ، مما يستنتج منه ان عالمنا «هو خير العوالم الممكنة». ولكن هذه الجملة تستثير سخرية فولتير الى اقصى حد . فهو يجد من المستحيل ان يقول ان « كل شيء على ما يرام » امـــام الزلازل ، والطاعون والكوليرا والمجاعة ، والمصائب التي تجرهـــا الحروب ، ويأتي بها التعصب والظلم . فكيف يمكـــن الايمان بأن « كل شيء على ما يرام » حين نتصور الوجه الحقيقي للعالم ، الذي هو كومة من الجثث يأكل الاحياء فيها بعضهم بعضاً بحيث ان خير البعض لا يضمـن الا اذى البعض الآخر . وهذه الحقيقة لا يعبر عنها فولتير بطريقة مجردة نظرية فحسب ، بل يريد ان يتذوقهـــا جميع الناس ، فيعبر عنها في شعر مؤثر وكراريس بليغة

وفي روايته المعروفة « كانديد » ، ولما كان فولتير قد خص بالتنويه فظائع العالم وشدد على ذكرها اكثر من نواحيه الجميلة ، افلا يعد ذلك خدمة للالحاد اكثر منه خدمة للايمان بالله ؟ ومن يقرأ فولتير ثم يجد نفسه على استعداد لأن يؤدي واجبات العبادة والشكر التي توصي بها الاديان ؟

اما النقطة الثانية فهي ان فولتير ليس عدواً للدين في عرضه لحجة الشر فحسب ، اذ ان اللون الغالب على آثاره كلها هو العداء للدين . فان كاتباً مثل جان جاك روسو مثلاً لا يقل عنفاً عن فولتير في مهاجمته للاديان التقليدية . الا انه يشعر بتأثر امام الطبيعة ، ويخفق قلبه لجمال الشمس في بزوغها او غروبها ويجد في الطبيعة برهاناً على وجود الله . وليس عند فولتير شيء من هذا . فهو يحاول اقامة دينه الطبيعي على اسس من المحاكمة المجردة الجافة ، فهو ليس من اولئك الذين « يحسون برهبة الفراغات اللامتناهية » على حد قول باسكال . فهو لا يفهم باسكال ويجد في كل شيء سبباً للسخرية والمزاح الذي يبلغ في كثير من الاحيان حد السلاطة والبذاءة .

ففولتير اذن ليس ملحداً الا انه كافر زنديق .

فالدين قوامه الانفعال والثقة ولكن ايمانه بالله يقوم على محاكات مجردة وسخريات متكلفة . وهذا ما أثار عليه انصار الحركة الرومانسية امثال شاتوبريان ولامرتين والفريد دي موسيه والذي جعله في أعين الناس مثال المتهجم على الاديان ، الهادم لها .

مقتطفـــات

مـــن

آثـــار فولتـــير

الفيلسوف الجاهل

١ — من انت ؟ من أين تأتي ؟ ماذا تصنـــع ؟ إلام تصير ؟ هذا سؤال يجب طرحـــــه على جميع مخلوقات الكون ، الا انه سؤال لا يجيبنا عليه أحد . فأنا اسأل النبات اية قوة تجعله ينمو وكيف تنتج الارض ذاتهـــا مختلف الثمار ... فلا اجد جواباً . واسأل تلك الجماهير من الحيوانات المختلفة التي تتمتـــع بالحركة وتنقلها ، وتتمتع بنفس الاحاسيس التي اتمتع بهـا انا ، والتي تملك قسطاً من الافكار والذاكرة بما ينتج عن ذلك من اهواء. فاذا بها اقل معرفة مني بمـــا هي ، ولماذا خلقت وإلام تصير .

واظن ، بل واعتقد ان السيارات ، والشموس التي لا حصر لها والتي تملأ السموات، يسكنها اناس حساسون مفكرون ، إلا ان ثمة حاجزاً ازلياً يفصل بيننا ويمنع سكان تلك العوالم الاخرى من الاتصال بنا .

٢ ـ ضعفنا . ـ انا حيوان ضعيف وليس لدي، حين اولد ، لا القوة والمعرفة ولا الغريزة . وليس في قدرتي سوى ان ادب حتى أصل الى ثدي امي كما يفعل ذوات الاربع ، ولا احصل بعض الافكار كما احصـل بعض القوة الا حينما تنمو اعضائي . وتزداد هـذه القوة في حتى تبلغ الوقت الذي لا يعود في امكانهـا ان تنمو ، فتتناقص كل يوم . وهـذه القدرة على تكوين الافكار يزداد كذلك حتى يبلغ حده ثم يتلاشى تدريجياً وبطريقة غير محسوسة .

فما هو هذا الجهاز الذي يزيد ، من وقت الى آخر ، قوى اعضائي حتى الساعة المحددة ؟ لست ادري . وكذلك الذين قضوا حياتهم يبحثون عن ذلك السبب لا يعرفون عنه أكثر مما اعرف .

ثم ما هي تلك القوة الاخرى التي تدخل الصور في دماغي وتحتفظ بها في ذاكرتي ؟ لقد عجز الباحثون

عن اكتشافها ، وما زلنا جميعاً نجهـــل الأصول الأولى لها حين كنا في المهد .

٣ ــ **كيف يمكنني ان افكر ؟** ــ هل علمتني شيئاً الكتب التي الفت منذ الفي عام ؟ تداخلتنــــا في بعض الاحيان الرغبــــة في ان نعرف كيف نفكر ، وان كانت الرغبة في ان نعرف كيف نهضم ، وكيف نسير لا تراودنا الا نادراً . ولقد سألت عقلي، لقد سألته ما هو، فافحمه هذا السؤال دائماً .

لقد حاولت ان اكتشف ، مستعيناً بعقلي ، ما اذا كانت الوسائل التي تجعلني اهضم وامشي هي التي تجعلني افكر . ولم استطع ابداً ان افهم كيف ولماذا تهرب مني افكاري حين يضعف الجوع جسمي ، وكيــف تعود الى الظهور حين آكل .

لقد لاحظت فارقاً كبيراً بين الافكار وبين الطعام الذي بدونه لا يمكنني ان افكر ، حتى اعتقــدت ان فيّ جوهراً يفكر وجوهراً آخر يهضم .الا انني حين حاولت دوماً ان اثبت لنفسي انني اثنان ، عدت فشعرت انني واحد،وهذا التناقض سبب لي دوماً حزناً كبيراً . لقد سألت بعض امثالي من الذين يحرثون الارض امنا المشتركة،

هل يحسون بأنهم اثنان ، هل اكتشفوا بفلسفتهم انهم يملكون جوهراً خالداً وان كان مخلوقاً من لا شيء ، موجوداً دون ابعاد ، مؤثراً على اعصابهم دون ان يمسها، مرسلاً خصيصاً في بطون امهاتهم ستة اسابيع بعد الحمل. فظن من سألتهم انني امزح ، واستمروا يحرثون حقلهم دون ان يجيبوا على سؤالي .

٤ ـ **هل من اللازم لي ان اعرف ؟** . ـ حين رأيت ان عدداً عظيماً من الناس لم تكن عندهم اية فكرة عن الصعوبات التي تقلق بالي ، ولم يكونوا يشكون في صحة ما يعلم في المدارس عن الكينونة بصورة عامة ، وعن المادة والروح ، الخ .. وحين رأيت انهم كثيراً ما لا يكترثون بما أريد ان اعرفه ، داخلني الشك في انه ليس من اللازم مطلقاً ان اعرف ما ارغب في ان اعرف . وفكرت في ان الطبيعة قد اعطت كل انسان القسط الذي يوافقه وادركت ان الاشياء التي لا نستطيع الوصول اليها ليست من نصيبنا . ولكن ، على الرغم من هذا اليأس ، ما زلت راغباً في ان اتعلم وما زال فضولي المخدوع لا يشبع .

٥ ـ **ارسطاطاليس ، ديكارت ، غاستندي** ـ يبدأ

ارسطاطاليس فيقول ان قلة التصديق هي أساس الحكمة . وعمد ديكارت الى هذه الفكرة فمطّها ، ونجح الاثنان في تعليمي ان لا اصدق شيئاً مما يقولان . وديكارت هذا بصورة خاصة تراه ، بعد ان تصنع الشك ، يتكلم بلهجة قاطعة عما ليس يفهم ، ويبدو واثقاً مما يقول في حين انه يخطىء خطأً فاحشاً في الطبيعيات ، ويبني عالماً خيالياً ، مما يجعلني احذر من كل ما يقوله عن الروح بعد ان رأيته يخدعني بما يقوله عن الاجسام . ولست ارى ضيراً في امتداح ديكارت شريطة ان لا تمتدح « رواياته الفلسفية » التي أصبحت اليوم موضع الاحتقار الدائم في اوربا .

فديكارت يعتقد ، او يتظاهر بأنه يعتقد ، اننا نولد ولدينا افكار ميتافيزيقية . وانا افضل أن اقول ان هوميروس ولد والالياذة في رأسه . ولا شك في ان هوميروس حين ولد ، كان لديه دماغ مركب بشكل جعله يحصل فيا بعد الافكار الشعرية الجميلة طوراً ، المضطربة طوراً آخر ، ويؤلف الالياذة . فنحن ، حين نولد ، نأتي بجرثومة كل ما ينمو فينا ، الا اننا لا نملك من الافكار الفطرية شيئاً كما ان رافائيل وميكيلانجيلو لم يأتيا معهما ، يوم ولدا ، بالفراشي والالوان .

وعمد ديكارت ، في محاولة تنسيق الاجزاء المتنافرة من خرافاته، الى افتراض ان الانسان يفكر على الدوام. وذلك يعادل القول بأن الطيور لا تتوقف عن الطيران والكلاب لا تكف عن العدو ، لأن الكلاب لديها قابلية العدو والطيور لديها قابلية الطيران .

ويكفي المرء ان يرجع الى تجاربه والى تجارب الجنس البشري كيف يؤمن بعكس ذلك . فليس في الكون مجنون يعتقد جازماً انه قضى كل حياته ، ليلها ونهارها دون انقطاع وهو يفكر . ولقد عمد المدافعون عن هذه الخرافة الى القول بأن الانسان يفكر دوماً ولكنه لا يشعر بذلك : ولمَ لا نقول اذن اننا نأكل ونشرب ونركب الخيل دون ان نشعر . واذا لم يشعر المرء بأن عنده افكاراً كيف يمكن ان يؤكد انها عنده ؟ ولقد سخر غاسندي ما فيه الكفاية من هذا المذهب . وماذا حصل بعد ذلك ؟ لقد اتهم ديكارت وغاسندي بالالحاد لانهما كان يفكران بعقلها .

٦ — **الحيوانات** . — لما كان في المفترض ان البشر عندهم دوماً افكار ، وأدراكات حسية ومفاهيم ، فقد جر ذلك بالطبع ان الحيوانات لديها مثل ذلك . فمما لا

جدال فيه ان كلب الصيد لديه فكرة صاحبـــه الذي يطيع وفكرة الطريدة التي يحضرها له . ومن الجلي ان لدى الكلب ذاكرة وانه يرتب بعض الافكار ويدبجها . وهكذا اذن نرى انه ، اذا كان تفكير الانسان هو جوهر روحه ، فتفكير الكلب هو جوهر روحه ايضاً. واذا كان لدى الانسان افكار دائماً وجب ان يكون لدى الكلب افكار دائماً كذلك . وحلاً لهــذه المشكلة تجرأ ديكارت فقـــال ان الحيوانات ليست سوى آلات صرف تسعى للأكل دون شهية ، وتملك أعضاء الاحساس دون ان تحس بشيء ما ابداً ، وتصرخ دون ألم ، وتعبر عن سرورها دون فرح ، وتملك دماغاً كي لا تتلقى فيه اية فكرة مهما كانت ضئيلة ، فاذا بها مفارقة دائمـة من مفارقات الطبيعة .

وهــذا المذهب سخيف كالمذهب الآخر . إلا ان اعداءه ، عوضاً عن ان يكشفوا عـــن غرابته رموه بالزندقة وادعوا ان الكنيسة المقدسة تشمئز منه .

٧ ــ **التجربة** . ــ يجب ان نجر الكتاب المقدس الى مناظراتنا الفلسفية : فهو وهي اشياء لا علاقـة لبعضها ببعض . فنحن هنا بصدد البحث عما يمكن ان نعرفـــه

بذاتنا .. وذلك شيء قليل ، وعلى المرء ان يتخلى عن حسه السليم اذا لم يقر بأننا لا نعرف شيئاً عن العالم الا بالتجربة . واذا كنا لا نصل إلا بالتجربة وبالتلمس وبالتأمل الطويل الى تكوين بعض الافكار الضعيفة عن الجسم ، والفراغ اللامتناهي ، والله نفسه ، فلا لزوم اذن لخالق الكون ان يضع هذه الافكار في ادمغة الأجنة في بطون امهاتها ، اذا لم يستفد منها بعد ذلك الا عدد قليل من الناس .

٨ ـ **المادة** . ـ لما كنا لا ندرك شيئاً الا بالتجربة ، كان من المستحيل ان نعلم يوماً ما هي المادة . فنحن نلمس المادة ونرى خصائصها الا ان جوهرها سيظل مجهولاً لدينا الى الابد ، ومهما اكتشفنا من مظاهر المادة فان بواطنها ستظل سراً مغلقاً . وللسبب نفسه فاننا لا نعرف مطلقاً ما هي النفس . وحتى اذا استطعنا ، بمعجزة ، ان نكون فكرة ضئيلة عن جوهر هذه النفس فان ذلك لن ينفعنا شيئاً ، اذ اننا لن نستطيع ابداً ان نحزر كيف تتلقى هذه النفس الاحاسيس والافكار . ونحن نعرف ان لدينا شيئاً من العقل ، ولكن كيف حصلنا عليه ؟ هذا هو سر الطبيعة وهي لم تبح به لمخلوق .

٩ ـ **الحدود الضيقة** . ـ ان عقلنا محدود جداً ، وكذلك قوة جسمنا . وثمة رجـــال اقوى من غيرهم ، وكذلك يوجد عمالقة في عالم الفكر . وهذا التفوق ليس شيئاً ، في الحقيقة . فبعضهم يرفع عشرة امثال ما ارفعه انا من المادة ، وبعضهم الآخر يمكنه ان يقوم ، دون ورقة او قلم ، بعملية ضرب فيها خمسة عشر رقماً ، بينما لا استطيع ان اضرب اكثر من ثلاثة او اربعـة ارقام إلا بصعوبة عظيمة . وهذا هو مدى تلـــك القوة التي يتغنى بها الكثيرون . وهي سرعان ما تصـــل الى حدها . ولذلك لا نجد احداً ، مهما اجتهد ومهما تمرن ، يتجاوز الحد المضروب له ، حـــد عقله . ومن اللازم قطعاً ان يكون الأمر كذلك ، والا سرنا ، درجـــة درجة ، الى اللانهاية .

١٠ ـ **الاكتشافات المستحيلة** . ـ لنتأمل ، ونحن في هذه الدائرة الضيقة التي تحبسنا ، فيما حكم علينا بأن نجهله وما يمكننا ان نعرفه قليلاً . ولقـــد رأينا ، فيما سبق ، انه ليس بامكاننا ان ندرك أي سبب أول ، أو مبدأ اول .

لماذا يطيع ذراعي ارادتي ؟ لقد بلـغ من اعتيادنا

هذه الظاهرة الغريبة ان الذين يلتفتون اليهـا قليلون . وحين نحاول ان نبحث عن سبب هذه النتيجة الدارجة نجد حقاً ان ما بين ارادتنا وطاعة ذراعنا هو اللامتناهي اي انه ليس من نسبة ابـداً بين الواحد والآخر ، ولا سبب ولا ما يشبه السبب . ونحس انه في امكانتنـا ان نفكر في الامر الى الابد دون ان نتخيل ما يحتمـل ان يكون تعليلا .

١١ ــ **اليأس المسّبب** . ــ وهكذا ، اذ نقف عند الخطوة الاولى وننكفيء على انفسنا دون جدوى ، يدب الخوف فينا اذ نبحث عن انفسنا دوماً دون ان نجـد انفسنا ابداً . اذ ليس في الامكان تعليـل اية حاسة من حواسنا .

اننا نرى الشمس باعيننا . ولكـن ما هي الشمس ؟ ولماذا تدور حول محورها ؟ ولماذا تدور في اتجاه دون آخر ؟ ولماذا ندور نحن وزحل حول الشمس من الغرب الى الشرق بدلاً من الشرق الى الغرب ؟ لـن نستطيع الجواب على هذا السؤال ابداً ، كما اننا لن نرى مطلقـاً اية امكانية لتخيل سبب طبيعي لذلك . لماذا ؟ لأن عقدة هذه الصعوبة موجودة في العلة الاولى للاشياء .

واذا عدنا الى ما يعتمل في داخلنا ، وجــدناه يشبه ما يجري في الداخـــل . فلو امكننا ان نعرف سببنا الاول ، لاصبحنا السادة ، ولاصبحنا آلة .

ولنوضح هذه الفكرة ولنرَ ما اذا كانت صحيحة .

لنفترض اننـــا وجدنا سبب احاسيسنا وافكارنا وحركاتنا ، كما سبق لنا ووجدنا في الكواكب اسباب الخسوف وتغير وجوه القمر والزهرة ، فمن الواضح اننا عند ذلك يمكننا ان نتنبأ باحاسيسنا وافكارنا ورغباتنا الناتجـــة عن تلك الاحاسيس كما نتنبأ بوجوه القمر وبالخسوف . فاذا عرفنا ما سيحدث غـــداً في باطننا امكننا ان نرى بوضوح ما سيحدث لنا من اشياء سارة أو محزنة . « نحن نملك ارادة توجه حركاتنا الباطنية في مختلف الاحوال . فانا ، مثلاً ، اشعر بأني اميـــل الى الغضب » فيصبح تفكيري وارادتي عوارضه عنـــد ظهورها .

ولو عرفت الاسبـــاب الاولى فيما يخصني ، لرأيت كل العواطف التي سأحس بها غداً،وسلسلة جميع الافكار التي تنتظرني ، وعند ذلك يمكنني ان اسيطر على هذه

الافكار والحواس مثلما اسيطر في بعض الاحيان على الحواس والافكار الحالية التي احولها واكبحها ، واجد نفسي في وضع الانسان الذي يمكنه ان يؤخر او يقدم حسبما يشاء حركة ساعة او سفينة او اية آلة معروفة . ولو صح هذا الافتراض واصبحت سيد الافكار المقدرة لي غداً، لأصبحت سيد غدي وسيد ما تبقى من حياتي، فيمكنني ان اصبح مطلق السلطان على نفسي ، واغدو اله نفسي . ولكنني اشعر بأن هذه الحال لا تتلاءم مع طبيعتي . ولذلك كان من المستحيل لي ان اعرف شيئاً عن السبب الاول الذي يجعلني افكر واعمل .

١٢ — **ضعف البشر** . — هذه الاشياء المستحيلة على طبيعتي الضعيفة المحدودة ، ذات المدة القصيرة ، هل هي مستحيلة في الميادين الاخرى على اجناس اخرى من الكائنات ؟ هل ثمة عقول عليا ، تسيطر على جميع افكارها ، تفكر وتحس بكل ما تريد ؟ لست أدري . فانا لا أعرف سوى ضعفي . وليست عندي اية فكرة عن قوة الآخرين .

١٣ — **هل انا حر ؟** . — لنبقَ في حلقة وجودنا ، ولنستمر في فحص انفسنا طالما استطعنا ذلك . اذكر

ذات يوم ، قبل ان اعالج كل المسائل الآنفة ، ان احد المفكرين اراد ان يخضعني لسلطان العقل فسألني هل انا حر . فأجبته اني لست سجيناً، وان معي مفتاح غرفتي، وأني حر تماماً . فأجابني : لست هذا ما اسألك عنه . هل تظن ان ارادتك حرة في ان تريد او لا تريد رميك من النافذة ؟ فنظرت الى سائلي متفحصاً ، محاولاً ان اقرأ في عينيه ما اذا كان عقله لم يبارحه، واجبته اني لا افهم هذا الخلط .

إلا ان هذا السؤال عن حرية الانسان اثار اهتمامي الى حد كبير ، فقد كنت قرأت الفلاسفة المدرسيين وبقيت مثلهم في الظلمات ، وقرأت لوك فاستبان لي بصيص من النور ، وقرأت كتاب كولنز فبدا لي كأنه لوك ُمحسَّناً ، ولم اقرأ بعد ذلك اي شيء زاد في معرفتي . وها هو ما تمخض عنه عقلي الضعيف، بمساعدة هذين الرجلين العظيمين اللذين اعتقدهما انهما الوحيدان اللذان فهما انفسهما حين كتبا عن هذا الموضوع والوحيدان اللذان استطاعا ان يجعلا الآخرين يفهموهما . ليس من شيء دون سبب . فالتاريخ دون سبب ليس إلا كلاماً لا طائل من ورائه . ففي كل مرة اريد، لا يحدث ذلك إلا بقوة قراري الصالح او الفاسد ، وهذا القرار لازم ،

اذن فارادتي لازمة ايضاً . فانه من المستغرب ، لو صح ذلك ، ان تخضع الطبيعة كلهـــا وجميع النجوم لقوانين ازلية ، وان يوجد حيوان صغير ارتفاعه خمسة اقدام ، يتصرف كما يشاء وحسب ما يهوى ، معاكساً بذلك تلك القوانين ، ويعمل حسب المصادفـــة ، والمعروف ان المصادفة لا وجود لها. فاننا اخترعنا هذة الكلمة كي نعبر عن الناتج المعروف لكل سبب غير معروف .

ان افكاري تدخل دماغي لزومـــاً فكيف يمكن لارادتي المتعلقة بافكاري ان تكون — في وقت معاً — موجبة ومطلقـة الحرية ؟ وانا اشعر في آلاف الاحوال ان هذه الارادة لا تستطيع شيئاً ، حين يضنيني المرض مثلاً ، وحين يلج بي الهوى ، وحين لا يستطيع عقـلي الوصول الى الاشياء التي تعرض علي ، الخ ... اذن وجب علي — بما ان قوانين الطبيعـة لا تتغير — ان اعتقد بأن ارادتي ليست اكثر حرية في الاشياء التي لا تهمني منها في الاشياء التي اخضع فيها لقوة لا تقـاوم .

ان الحرية الصحيحة هي حرية الاقتـــدار . فحين استطيع ان افعل ما اريـــد ، فتلك حريتي . ولكنني اريد حتماً ما اريد والا اردت دون تفكير ودون سبب ،

وهذا مستحيل . ان حريتي تقوم على المشي حين اريد ان امشي ، ولا يمنعني عن ذلك مرض .

وحريتي تعني ان لا اقوم بعمل سيء حين يبرهن لي فكري انه سيء حتماً ، وان اسيطر على نزوة حين ارى فكري يبين لي الخطر منها وحين يحارب هول هذه النزوة رغبتي في اشباعها . ففي امكاننا كبح اهوائنا كما بينت آنفاً (انظر الفقرة رقم ٤) ، الا اننا لسنا في كبحنا لرغباتنا اكثر حرية منا في الاستسلام لميولنا ، فاننا في الحالتين نندفع وراء آخر فكرة لنا ، وهذه الفكرة الاخيرة محتومة : اذن فانا افعل حتماً ما تمليه علي . ومن الغريب ان لا يكون البشر اكثر رضى على هذا القسط من الحرية ، أي على هذه القدرة التي منحتهم اياها الطبيعة على فعل ما يحلو لهم في حالات عديدة . فالكواكب ليس لديها هذه الحرية ، ونحن نملكها ، وغرورنا يوسوس لنا احياناً ان حريتنا أكبر من ذلك . ونتخيل ان لدينا القدرة التي لا يفهمها ولا يقبلها عقل على ان نريد دون سبب سوى اننا نريد ان نريد .

هذا والحتمية الاخلاقية ليست الا كلمة جوفاء ، فان كل ما يصنع محتوم اطلاقاً . وليس من وسط بين الحتم

والمصادفة، كما اننا نعرف ان المصادفة لا وجود لها فكل ما يحدث محتوم .

ولقد خطر لبعضهم — زيادة في البلبلة — ان يفرقوا بين الحتم والقسر ، ولكن هل القسر في الحقيقة سوى حتم نراه وندركه ؟ وهل الحتم الا قسر لا ندركه ؟

١٤ — هل كل شي خالد ؟ . — اجد نفسي خاضعاً لقوانين خالدة ، شأني في ذلك شأن جميع الكرات التي تملأ الفضاء ، وشأن جميع العناصر والحيوانات والنبات، والقي نظرات دهشة على كل ما يحيط بي ، وابحث عن خالقي وخالق هذه الآلة العظيمة التي لست فيها الا عجلة ضئيلة .

أنا لم آت الى هذه الدنيا من لا شيء ، لأن مادة أبي وامي التي حملتني تسعة اشهر في رحمها شيء موجود . ومن البين لي ان الجرثومة التي انتجتني لا يمكن ان تكون قد خلقت من لا شيء ، اذ كيف يمكن للعدم ان ينتج الخلق ؟ واراني اؤمن بهذه الحكمة القديمة : لا شيء يأتي من العدم، ولا شيء يمكنه ان يعود الى العدم. وهذه البديهة تحمل في ذاتها قوة عظيمة تقيد كل عقلي فلا استطيع لها دفعاً . وليس من فيلسوف حزن عليها،

ولا من مشرع شك فيها .

ويقول لي عقلي : اذا كانت المادة موجودة ، وجب ان تكون خالدة ، فاذا وجدت امس ، فانها اذن قبله . ولا مجال للخواء . فالخواء مستحيل في نظر العقل . اذ انه من المستحيل ان يكون قد وجد شيء يناقض قوانين العقل ، بما ان العقـــل ازلي . والخواء هو عكس كل قوانين الطبيعة .

١٥ ــ **العقل** . ــ حين ارى النظام ، والآلة العظيمة ، والقوانين الميكانيكيـة والهندسية التي تسود الكون ، والوسائل والغايات التي لا عدد لها لجميـــع الاشياء ، يسيطر علي الاعجاب والاحترام . وارى حالاً انـه إذا كانت اعمـــال البشر وحتى اعمالي تضطرني الى ان اقر بوجود العقل فينا ، وجب علي ان اقر بوجود عقل ذي نشاط اكبر في هذه الآثار التي لا حصر لهـــا . واقر بوجود هذا العقل الاعظم دون ان اخشى احـــداً يغير رأيي . فليس من شيء يهز اعتقادي بهـذا المبدأ : كل عمل يثبت وجود عامل .

١٦ ــ **الخلود** . ــ هل هذا العقل خالد ؟ بلا شك . فاني ، سواء قبلت خلود المادة او رفضته ، لا استطيع

ان ارفض الوجود الخالد لخالقها الاعظم . ومن الواضح انه اذا كان موجوداً اليوم ، فقد وجد دائماً .

١٧ ـ **الاستعصاء على الفهم** . ـ لم اخط بعد سوى خطوتين او ثلاثة في هذا الميدان الواسع: فاني اريد ان افهم اذا كان هذا العقل الالهي شيئاً منفصلاً تماماً عن الكون، كما يكون النحات منفصلاً عن تمثاله ، او اذا كان متحداً مع العالم ومتداخلاً فيه ، كما اقول ان روحي متحدة بي.

واراني متوقفاً فجأة في تطلعي الذي لا جدوى منه. فانا المخلوق البائس ، اذا لم يمكنني ان اعرف ما الذي يحركني ، كيف يمكنني ان اعرف العقل الذي لا تحيط به الالفاظ والذي يسيطر بوضوح على المادة كلها ؟ فهذا العقل موجود ، اذ ان كل شيء يثبت وجوده ، ولكن اين البوصلة التي تقودني نحو مقامه الازلي المجهول ؟

١٨ ـ **اللامتناهي** . ـ هل هذا العقل لامتناه في قوته وشسوعه كما هو لامتناه في الزمن؟ ليس في امكاني ان اعرف شيئاً من ذلك بنفسي، ان هذا العقل موجود، اذن فانه كان موجوداً دائماً . وهذا واضح . ولكن اية فكرة يمكن ان اكونها عن لامتناه موجود فعلاً؟ كيف

يمكنني ان اتخيل ان العقل الاعظم موجود في الفراغ ؟ فان اللامتناهي في الاتساع يختلـــف عن اللامتناهي في الزمن، فلقد مر زمن متناه في اللحظة التي اتكلم فيها، وهذا ثابت . وليس في امكاني أن اضيف شيئاً الى هذا الزمن الذي مضى ، ولكن في امكاني دوماً ان اضيف الى الفراغ الذي اتخيل كما يمكنني ان اضيف الى الارقام التي تخطر في بالي ، واللامتناهي في الارقام وفي الفراغ شيء يفوق مدى عقلي . ومهما قيل لي ، فلا شيء يضيء لي تلك الظلمة . ومن حسن الحظ اني ادرك ان هـــذه المصاعب ، وجهلي ، لا تؤثر على الاخلاق . فان قصورنا عن ادراك اللامتناهي ، وعن تصور القدرة التي خلقت كل شيء وما زالت تستطيع ان تخلق اكثر من ذلك ، انما يثبت ضعف عقولنا ، وهـــذا الضعف لا يزيدنا الا خضوعاً للكائن الازلي الذي نحن صنعته .

١٩ — تبعيتي . — نحن صنعته . هذه حقيقة تهمنا . فان الوصول عن طريق الفلسفة الى ان نعرف في اي وقت خلق الانسان ، وماذا كان يصنع قبل ، وهل هو في المادة أم في الفراغ ، هل هو في نقطة ، هل يعمل دوماً ام لا ، هل يعمل في كل مكان ، هل يعمل خارج

ذاته او داخلها ، كل هذه ابحاث تزيد في نفسي الشعور بجهلي العميق .

وارى انه لم يوجد في اوربا إلا عشرة رجال او اقل كتبوا عن هذه الاشياء المجردة بشيء من المنهج . وحتى حين افترض انهم تكلموا بصورة مفهومة ، فماذا كانت النتيجة ؟ لقد سبق واعترفنا ان الاشياء القليلة التي يمكن لعدد قليل من الناس ادعاء فهمها انما هي اشياء لا نفع لها للانسانية .

نحن قطعاً من صنع الله . وهذا ما يهمني معرفته ، والبرهان عليه ملموس ، فكل شيء واسطـــة وغاية في جسمي ، كـل شيء رفاص وبكرة وقوة متحركة ، وآلة مائية ، وتوازن سوائل ، ومختبر كيمياء . اذن فكل هذا من ترتيب عقل . وليس ذلـك الترتيب من عقل ابوي لانهما ، قطعاً ، لم يكونا يعرفان ماذا يفعلان حين وضعاني في العالم ، ولم يكونا سوى الآلات الصماء استعملها ذلك الصانع الازلي الذي يحرك دورة الارض ويدورالشمس حول محورها .

٢٠ – **عود الى الازلية** ـ ولد الانسان من جرثومة اتت من جرثومة اخرى. فهل من تتابع مضطرد،ونمو لا

نهاية له لهذه الجرائم ، وهل الطبيعة كلها وجدت دوماً بسبب نتيجة لازمة لهذا الكائن الاعظم الذي كان موجوداً بذاته ؟ لو انني اكتفيت بما يليه على عقلي الضعيف لقلت : يبدو ان الطبيعة حية منذ الازل . وليس في امكاني ان أتصور ان السبب الذي يؤثر عليها بصورة دائمة وظاهرة ، اذا كانت قد اثر في جميع الاوقات لم يؤثر منذ الازل . فان ازلاً من الحول الكائن الفاعل اللازم يبدو لي متناقضاً وطبيعته . ويحملني الاعتقاد على ان العالم قد انبثق دوماً عن هذا السبب الأول اللازم كما ينبثق النور عن الشمس . واي تداعٍ للافكار اراني اعتقد بأزلية آثار الكائن الازلي ؟ ان تصوري ، على ضعفه ، فيه قوة يصل بها الى الكائن اللازم الموجود بذاته ، وليس فيه القدرة على تصور العدم . فان وجود ذرة واحدة يبدو لي برهاناً على ازلية الوجود ، ولكن لا شيء يثبت لي العدم . فكيف اصدق وجود لا شيء في الفراغ حيث يوجد الآن شيء . هذا امر يدق على فهمي ، وليس في امكاني ان أقر بوجود هذا اللاشيء . فانا اعرف حق المعرفة ان تتابعاً لا نهاية له في الكائنات التي لا مبدأ لها ولا أصل الى شيء يرفضه العقل .

٢١ – عود الى تبعيتي . – هذا الكائن الازلي، هذا السبب المسكوني يلهماني افكاراً ، لان الاشياء لا تبعث في الفكر . فالمادة الخام لا يمكنها ان ترسل الافكار داخل رأسي . وافكاري لا تأتي مني ، لأنها تأتي رغماً عني وكثيراً ما تذهب كذلك . والمعروف انه ليس من شبه ولا علاقة مطلقاً بين الاشياء وبين افكارنا واحاسيسنا . لقد قرأت ما كتبه الفلاسفة ، وعدت الى جهلي الطبيعي ، فانا اعبد الله بأفكاري، دون أن أعرف كيف افكر .

٢٢ – مسألة جديدة . – اما وقد اقتنعت بعقلي الضئيل بوجود كائن لازم ، ازلي ، عاقل ، منه تأتيني افكاري دون ان استطيع ان اضمن لا « كيف » ولا « لماذا » ، اراني اتساءل ما هو هذا الكائن ، هل له شكل الاجناس العاقلة الفاعلة المتفوقة علي في العوالم الاخرى ؟ لقد قلت سابقاً اني لا ادري عن ذلك شيئاً . وعلى الرغم من ذلك فاني لا استطيع القول بأن ذلك مستحيل ، لاني أرى نجوماً اكبر من ارضنا ، ومن حولها سيارات اكثر مما حول ارضنا . وليس مما يناقض المعقول ان تكون في تلك النجوم مخلوقات ذات عقول اقوى من عقلي واجسام امتن من جسمي وابقى . ولكن

بما ان وجود تلك المخلوقات لا علاقـــة له بوجودي ، وجب علي ان ابحث عن تأثير الكائن الاعظم عليّ فقط.

١٣ ـ **خالق اعظم واحد**. ـ ثمة كثير من الناس يرون الشر المادي والاخلاقي منتشراً في العالم، فيتخيلون كائنين قادرين احدهما يخلق الخير كله والآخر يخلـــق الشر كله. ولو وجـد هذان الكائنان لكانا لازمين ، ولوجدا في المكان نفسه ، وتداخلا عند ذلك . وهـذا غير معقول . فان فكرة هاتـين القوتين المتعاديتين لا يمكن ان تجد اصلها إلا في الشواهد التي تستأثر باهتمامنـا في عالمنا . فاننا نرى رجالاً وديعين ورجالاً شرسين ، وحيوانات نافعة وحيوانات ضارة ، وحكامـاً صالحين وآخرين طغاة . وهكذا تخيل بعضهم قوتين متعاكستين تسيطران على الطبيعة. إلا أن هذا كله من نسج الخيال. ففي الطبيعة وحدة ارادة واضحـــة . فقوانين الحركة والجاذبية ثابتة لا تتغير . ومن المستحيـل ان يكون خالقان اعظمان ، قد سارا على القوانين نفسها، وهما على تناقض تام .

فمن الواضح اذن وجود قوة وحيـدة ، ازلية ، كل شيء مرتبط بها ، وكل شيء تابع لها ، إلا أن طبيعتها

تدق على الافهام .

يقولون لي ان الله بسيط ، واعترف بتواضع انني لا افهم معنى هذه الكلمة . ومن الواضح اني لا اعزو الى الله صفاتاً يمكنني فصلها عنه ، فان عقلي الضعيف ليست لديه الوسيلة الدقيقه لتفهم هذه البساطة . فالنقطة الهندسية بسيطة على ما يقال ، ولكن النقطة الهندسية ليست موجودة فعلاً .

ونقول ايضاً بأن فكرة ما بسيطة ، ولكنني لا استطيع فهم ذلك القول . فاني ارى حصاناً ، وأكون الفكرة المتعلقة به ، ولكنني لم ارَ فيه إلا مجموعة من الاشياء . فاني ارى لوناً ، وعندي فكرة اللون ، ان هذا اللون واسع . وانا الفظ الكلمات المطلقة المتعلقة بصورة عامة باللون وبالرذيلة وبالفضيلة وبالحقيقة ، وما ذلك إلا لأني عرفت الاشياء الملونة ، والاشياء التي بدت لي فاضلة او مرذولة وانا اعبر عن ذلك كله بكلمة . واذا عدنا الى البساطة ، وجدت ان ليس عندي معرفة واضحة بها ، ولست ادري عنها شيئاً .

وحين اقتنع باني لست ادري ما انا ، ولا استطيع

ان اعرف من خالقي ، اجـــد جهلي يضنيني ، واسلي نفسي اذ افكر ، دون انقطـــاع ، بأنه لا يهمني ان اعرف ما اذا كان خالقي موجوداً في المتسع ام لا ، اذا انا لم افعـــل شيئاً يناقض الوجدان الذي منحني اياه . واذا سئلت: من بين جميع الانظمة الالهية التي اخترعها الانسان ، ايها سأعتنق ؟ اجيبت : لن اعتنق اياً منها ، بل سأعبد الله .

٣١ ــ هل ثمة اخلاق ؟ . ــ كلما ازداد تبصري بالنـــاس المختلفين باختلاف الطقس والعادات واللغة والقوانين والعبـــادة ، وباختلاف ذكائهم ، ازدادت ملاحظتي لوحدة اساسهم الأخلاقي: فانهم جميعاً يملكون مفاهيم بدائية فيما يخص العدل والظلم دون ان يعرفوا كلمة من اللاهوت ، وهم جميعاً اكتسبوا تلـــك المفاهيم في السن التي يتفتح فيها العقل ، كما انهم اكتسبوا جميعاً كيفية رفع الاثقال بالعصي وعبور جدول على قطعة من خشب دون ان يتعلموا الرياضيات .

ولذلك بدا لي ان فكرة العدل والظلم فكرة لازمة للبشر ، لأنهم جميعـــاً يتفقون على هذه النقطة حالما

امكنهم ان يعملوا ويفكروا .

فالعقل الاعظم الذي خلقنـــا اراد اذن أن يسود العدل على الارض كي يمكننا ان نعيش عليهـا وقتاً من الزمن ويخيل لي انه لم يكن ليوجد اي نوع من المجتمعات لولا ان البشر قد ادركوا فكرة العدل ، التي هي رابطة كل مجتمع .

فكيف امكن للمصريين القدماء وللأشوريين البدائيين ان تكون لديهم ذات المفاهيم الاساسية المتعلقـة بالعدل والظلم ، لولا ان الله قد اعطاهم ، منذ الازل ، ذلـك العقل الذي نما ومكنهـم من ان يدركوا نفس المبادىء اللازمة ، كما اعطاهم الاعضاء التي جعلتهم يتناسلون ، ويبقون على العرق المصري والعرق الأشوري ؟ وجميـع الشعوب ، مهما كانت عليه من البدائية تقول بوجوب احترام الوالدين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وتلك مفاهيم واحدة يخلصون اليها عن طريق عقلهـم النامي .

٣٢ — النفع الحقيقي لمفهوم العدالة . — ان مفهوم العدالة يبدو لي طبيعيـاً ، ومقبولاً لدى جميع البشر بحيث انه مستقل عن اي قانون ، واي عهد ، واي

دين . فاني اذا طالبت مسلماً او مسيحياً او وثنياً بالمال الذي استدانه مني كي يأكل ويلبس ، فأنه لن يقول لي: انتظر كي ارى اذا كان ديني يأمرني برد مالي اليك ، بل يوافق على انه من العدل ان يدفع لي ، واذا لم يفعل ، فما ذلك الا لأن فقره او بخله تغلب على العدل الذي يقر به .

واقرر انه ليس من شعب يرى من العدل او الملائم او الشريف رفض اطعام الوالدين حين يمكن ذلك، وانه ليس من شعب يرى في النميمة عملاً صالحاً .

ويبدو لي ان فكرة العدالة فكرة ذات اهمية عظمى يقر بها الكون اجمع ، بحيث ان جميع الجرائم التي يقترفها المجتمع الانساني انما تقترف تحت ستار كاذب من العدالة . والحرب هي اعظم جريمة واشدها مخالفة للطبيعة ، ولكننا لا نجد معتدياً لا يحاول تغطية عدوانه باسم العدالة .

ولذا فاني اعتقد ان مفاهيم العدل والظلم مفاهيم واضحة، عامة، شأنها في ذلك شأن مفاهيم الصحة والمرض ، والحق والباطل ، وحدود العدل والظلم صعبة التحديد ، كما هو صعب تحديد الحالة الوسطى بين الصحة والمرض ، وبين الحق والباطل . فثمة دقائق يختلط بعضها ببعض ،

الا ان الألوان القاطعة تدهش الانظار . فالناس اجمعون ، مثلاً ، يقرون بأنه من الواجب رد ما استعرنا ، ولكن اذا علمت واثقاً بأن الشخص الذي له علي مبلغ طائل سوف يستخدم ذلك المبلغ لاحتلال وطني ، فهل علي ان ارد له ذلك السلاح الرهيب ؟ هنا تختلف الآراء .. ولكن من الواجب ، بوجه عام ، ان أفي بوعدي اذا لم ينتج عنه ضرر . وهذا رأي يتفق عليه الجميع .

٣٣ — هل القبول العام برهان على الحقيقة ؟ . — قد يعترض علي بعضهم بأن قبول الناس في جميع الازمنة والبلاد ليس برهاناً على الحقيقة . فجميع الشعوب آمنت بالسحر وفنونه ، وبالشياطين والاشباح والتنجيم وغير ذلك من الخزعبلات.. افلا يكون الأمر كذلك فيا يخص العدل والظلم ؟

اقول لا . فمن الباطل القول بأن جميع الناس قد آمنوا بهذه الخرافات . فانها كانت، والحق يقال ، غذاء للبلهاء ولكن عدداً كبيراً من الحكماء سخروا منها ، وهؤلاء العلماء اقروا دائماً بمفاهيم العدل والظلم ، كما فعل الشعب ، بل واكثر .

فالاعتقاد بالسحرة والشياطين الخ .. ليس لازمـاً للجنس البشري ، بينما ان الاعتقاد بالعدل حاجة مطلقة، فهي اذن نتيجة نمو العقل الذي منحـه الله للانسان ، وفكرة السحرة والممسوسين فساد في العقل ذاته .

٣٤ ـ **الاخلاق الشاملة** . ـ يبـدو لي ان الاخلاق تشمل الكون باكمله ، وانها من صنع الخالق الذي صنعنا وجعل منها موازنة لاهوائنا السيئة وراحة من العذاب الذي لا بد منه في حياتنا القصيرة، حتى انني ارى جميع الفلاسفة ، منذ اقدم الازمنـة حتى الآن ، يبشرون بالاخلاق نفسها على الرغـم من اختلاف آرائهم بعلة الوجود . ولكل قوم طقوسهم وعباداتهـم ، وآراؤهم الميتافيزيقية واللاهوتية .. ولكن اذا جرى القول على العدل ، وهـل يجب على الانسان ان يكون عادلاً كان الجواب : نعم ، على جميع الالسنة في الكون كله .

آراء فولتير في الدين والسياسة

« نعم ، اننا نريد ديناً ، الا اننا نريده بسيطـاً ، حكيماً ، جليلاً ، اليق بالله واقرب الينـا . بكلمة مختصرة ، نريد ان نخدم الله والبشر ..

بديهيات

ليس من مجتمع يستطيـــع ان يبقى بدون عدالة . لنبشر إذن باله عادل . وأذا كانت قوانين الدولة تعاقب الجرائم المعروفة ، فلنبشر اذن بان الله يعاقب الجرائم المجهولة.

لا تقولوا ابداً انه يجب خداع البشر باسم الله، فذلك من قول الشيطان لو أن الشيطان موجود .

ذروة السخف ان نبشر باله اشبه شيء بالطاغية البربري الذي لايعرف الشفقة ، ويصدر ، بالسر ، قانوناً مستعصياً على الافهام ، يسر به الى عدد قليل من المقربين اليه ، ويحكم بالذبح على سائر الناس الذين تجاهلوا ذلك القانون .

سلاطين برابرة يقولون لكهنة برابرة: اخدعوا رعايانا كي يخدمونا على وجه افضل ، وسندفع لكم اتعابكم. واذا بالكهنة يسيطرون على الشعب ويخلعون السلاطين.

هل تريدون ان تكون دولتكم قوية، مسالمة ؟ ليخضع الدين لقانون الدولة .

التعصب

التعصب جنون ديني كئيب ، فظ . وهو مرض يصيب العقل ويعدي كما يعدي الجدري ، وتنقله الكتب

اقل مما تنقله الاجتماعات والخطب ، اذ من النادر ان يحتد المرء وهو يقرأ لأن اعصابه تكون هادئة . ولكن حينما يخطب رجل متحمس ، ذو خيال قوي ، في اناس ذوي تخيلات ضعيفة ، فان عينـاه تقذفان النار وتدب هذه النـــار في السامعين ، وتؤثر حركاتـه ونبراته في اعصابهم . ويصيح الخطيب ان الله يراكم ، فجاهدوا في سبيله . فيذهبون ويجاهدون .

والتعصب اذا قورن بالايمان بالخرافات كالهذيان اذا قورن بالحمى وكالغيظ اذا قورن بالغضب .

...

وثمة متعصبون باردو الاعصاب ، وهم القضاة الذين يحكمون بالاعدام على من لا جريـــة لهم سوى انهم لا يفكرون على شاكلتهم . وهؤلاء القضاة يزيـــد في اجرامهم وفي كراهيتهم انهم لا يصدرون احكامهم وهم في سورة من الغضب . وهم لذلـك اقرب الى الاستماع الى صوت العقل .

وليس من دواء لهذا الداء المقيم الا الفكر الفلسفي ، الذي اذا انتشر ، من جهة الى اخرى، ادى الى تلطيف اخلاق البشر وهدأ من حـــدة المرض . اذ ان على المرء

ان يهرب حينا يستشري هـــذا الداء وينتظر حتى يتنقي الجو .

ولا القوانين ولا الدين تكفي لمكافحة هذا الطاعون الذي يصيب الانفس . والدين ينقلب سماً ناقعـــاً في الادمغة المصابة بالتعصب ، عوضاً عن ان يكون بلسماً لها . والقوانين عاجزة كل العجز ازاء هذا السعار ، فهم لا يفهمون لغتها ولا يدركون مضمونها . فالمتعصبون مقتنعون بأن روح القدس قد تمثــل فيهم ، وهو فوق القوانين ، وليس من قانون إلا حماسهم واندفاعهم .

فما الذي يمكن قوله لرجل يقول انه يفضل طاعة الله على طاعة البشر ، فهو ، اذن ، واثق من دخول الجنة حين يذبحك ويذبحني ..

...

ان الفلسفة تضفي على النفس السكينة ، والتعصب على طرفي نقيض مع السكينة . والمتعصبون لا يحاربون دوماً في سبيل الله ، ولا يقتالون دوماً الملوك والامراء .

وكل متعصب مكّار لا وجدان له ؟ كما انه قاتـل يقتال عن نية حسنة في سبيل قضية يظنها صالحة .

عن المعجم الفلسفي — مادة التعصب

الكلمة الاخيرة في الحكمة

نحن في هذا العالم تحت ادارة سلطة خفية وقوية ، كأننا دجاج وضعت في اقفاص مدة من الزمن قبل ان توضع على السفود ، ولن يفهم الدجاج مطلقاً اية نزوة جعلت الطباخ يضعه في الاقفاص . واني اراهن لو ان هذا الدجاج يفكر ويعقل ويبني نظاماً فلسفياً اساسه اقفاصه ، فانه لن يوجد بينه من يحزر انه انما وضع في الاقفاص ليؤكل . وان جلالتكم لعلى حق في السخرية من الحيوانات ذوات القائمتين التي تظن انها تعرف كل شيء .

مراسلات مع فريدريك الثاني ، الرسالة السابعة عشر

« كان في القرب درويش شهير يقال انه خير فيلسوف في تركيا ، فذهب لاستشارته . وتكلم بالجلوس وقال : « يا استاذي ، جئنا نرجوك ان تقول لنا لماذا خلق حيوان غريب كهذا الانسان » .

فقال له الدرويش : « ولم تتدخل فيما لا يعنيك . هل ذلك من شأنك » فقال كانديد : « ولكن يا سيدي ، ان على الارض لشراً كثيراً » فقال الدرويش : « وماذا يهم ان يكون عليها شر او خير ؛ حين يرسل السلطان سفينة الى مصر ، هل تراه يجشم نفسه مشقة التفكير فيما

اذا كانت الفئران الموجودة على السفينة على ما تروم ام لا ؟» فقال بانجلوس : « وما الذي يجب عمله اذاً . فقال الدرويش : « ان تسكت » .

...

وقال مارتان : « لنعمل دون تفكير . ذلك خير سبيل لجعل الحياة محتملة » .

وسار المجتمع الصغير جميعه على هذه الخطة الحميدة ، وراح كل منهم يعمل حسب مواهبه . واذا بالحقل الصغير يعطي ثماراً جمة . . وكان بانجلوس يقول احياناً لكانديد: « كل الاحداث متسلسلة في خير العوالم طراً . فلو لم تطرد من ذلك القصر الجميل رفساً في مؤخرتك بسبب حبك للآنسة كونيجوند ، ولو لم تخضع لاسئلة محكمة التفتيش ، ولو لم تذرع امريكا طولاً وعرضاً على قدميك . . اذن لما كنت تأكل هنا مربي الكباد والفستق » . واجاب كانديد : « حسناً قلت . ولكن يجب ان نزرع بستاننا » .

كانديد (النهاية)

فهرس

منشورات عويدات ٤١/١٠/١٩٦١

André Cresson

VOLTAIRE

Texte traduit en arabe
par
Dr. Salah Muhiddine

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris

فولتير

يبدو لي ان الاخلاق تشمل الكون بأكمله، وانها من صنع الخالق الذي صنعنا وجعل منها موازنة لأهوائنا السيئة وراحـــة من العذاب الذي لا بد منه في حياتنا القصيرة ، حتى انني أرى جميع الفلاسفة ، منذ أقدم الأزمنة حتى الآن ، يبشرون بالاخلاق نفسها على الرغم من اختلاف آرائهم بعلة الوجود . ولكـــن قوم طقوسهم وعباداتهم ، وآرائهم الميتافيزيقيـــة واللاهوتية . ولكـــن اذا جرى القول على العدل ، وهـــل يجب على الانسان ان يكون عادلا كان الجواب : نعم ، على جميع الالسنة في الكون كله .

فولتير


